(٩)

المختارون يواجهون المحدثين

فى الروح التى ذهبت بها أمريكا إلى الحرب سنة ١٩٤١م، يمكن أن نتعرف على بعض الحماسة البريئة والنزيهة التى تم بها إرسال الجيش البريطانى إلى الحرب فى سنة ١٩١٤م. وفى كل من الحالين كان الصراع الناشب وراء شواطئ الوطن ولم يكن يبدو أنه يهدد الوجود الوطنى، فى المستقبل المنظور على الأقل. وعلى خلاف بريطانيا لم تكن الولايات المتحدة قد واجهت الصيف الحاسم بالنسبة لها على جبهة السوم سنة ١٩١٦م، وما نتج عنه من صدمة الإفاقة من أحلام المجد العسكرى والمصير الوطنى. إذ كانت بريطانيا سنة ١٩١٤م ما تزال قوة عظمى، وربما كانت ما تزال هى الأعظم ـ صناعية، غنية، متحضرة وراضية عن نفسها (على الأقل بعيدة عما كان يسمى عمومًا «الطبقات الأدنى»). وكانت الاستجابة الوطنية لاستغاثة حليفة بريطانيا «بلجيكا الصغيرة المسكينة» التى غزتها ألمانيا عند بداية الحرب، هى استجابة صديق قوى تجاه جار أضعف يجابه المتاعب.

فى ديسمبر سنة ١٩٤١م تعرضت أمريكا لهجوم فظ؛ وكان هناك غضب، وليس نخوة، وراء إعلانها الحرب ـ على الرغم من أنه كان هناك أيضًا إحساس بالراحة؛ لأن الوقت قد حان لمساعدة صديق فى وقت الحاجة، هو بريطانيا العظمى. ولكن الثقة بالنفس الوطنية الأمريكية لم تتقلص، حيث إنه فى ذلك الوقت، كانت بريطانيا قد توارت فى الظل إلى الأبد بفعل المجازر اللامعقولة على

الجبهة الغربية قبل جيل مضى. وكان حول انجلترا سنة ١٩٤٠م إحساس من بقايا إيمان بالكتاب المقدس، وقد تعلقت بشكل قلق بـ «الديانة الحقة»، حينما كانت أوروبا على بعد واحد وعشرين ميلاً من مقاطعة كنت، تحت وطأة الحذاء العسكرى النازى. ومثل هذا الإحساس بالانكشاف أمام الخطر لم يكن مستشعراً فى أمريكا قبل أو منذ ذلك الحين، بل ولم يكن حتى نتيجة للإرهاب المحلى أو العالمى.

وتمامًا مثلما كان بوسع الفيلد مارشال دوجلاس هيج أن يأمر قواته بالهجوم ومعاودة الهجوم، وهو متأكد من أن الرب بجانبه وأن النصر النهائى سيكون حليفه مهما كان الثمن؛ فإن القادة الأمريكيين كذلك وقادة الأساطيل البحرية ذهبوا لقتال اليابانيين بنفس العقيدة. وثمة شيء واحد تخبرنا به قصة الشعب المختار هو أن المؤرخين العسكريين لم يهتموا بالقدر الكافى بصلوات القادة العسكريين الذين كتبوا عنهم وعن قواتهم؛ إذ إن تلك الصلوات، والإطار الأيديولوچى والدينى الذى تُليت تلك الصلوات فى رحابه، كانا لا بد أن يكشفا عن الكثير من الدوافع والمبادئ الأخلاقية العسكرية.

وموضوع كيڤين فيليپس فى كتابه «The Cousins Wars» مؤداه أن ثلاثة صراعات هى التى غيّرت اتجاه الحضارة الغربية: الحرب الأهلية الإنجليزية (أو الحروب كما يقول بعض المؤرخين)، وحرب الاستقلال الأمريكية (أو الحروب الثورية)، والحرب الأهلية الأمريكية، وكانت مرتبطة ببعضها ارتباطًا وثيقًا؛ إذ كانت كل منها تمثل صدامًا بين مثالين أو مبدأين دينيين وُجدا بين الشعوب الأنجلوسكسونية فى بريطانيا وأمريكا. ومن الممكن أن نحدد فى كل حالة الجانب الرابح بأنه الجانب الأكثر حماسة دينيًا، أى الجانب الذى كان أشد اقتناعًا بأن الرب معه، البروتستانت الأكثر راديكالية (الأكثر كالڤينية فى الواقع) من الجانبين. وكانت جيوش كروميل معروفة جيدًا بأنها تسير إلى المعركة وهى تنشد المزامير والأناشيد الدينية؛ وكذلك فعلت قوات ماساشوستس التى حاربت البريطانيين. وليست هناك صورة لچورچ واشنطن أكثر شهرة أو أشد كشفًا من

صورته وهو يصلى أثناء محنة الشقاء التى مر بها جيشه فى وادى فورج. وتبدأ رواية «ذهب مع الريح» بفطنة بتحليل الحرب بين الولايات الشمالية والجنوبية فى أمريكا، باعتبارها إعادة افتتاح النزاع المسلح بين كرومويل وشارل الأول، البيوريتان فى مواجهة الأسقفيين، الرجل العادى ضد الطبقة الراقية، والشماليين ضد المتمردين الجنوبيين.

وفى أمريكا ما تزال هذه الروح حية، «وترنيمة المعركة من أجل الجمهورية» التى كتبتها چوليا وارد هاو، الداعية إلى تحرير العبيد سنة ١٨٦٢م وأنشدتها على النغمة التى سمعت بها القوات تنشد «جسد چون براون»، صارت هى أنشودة قوات الاتحاد الظافرة فى الحرب. ولكنها كانت ما تزال تُنشد بإحساس على أفواه القوات الأمريكية فى الحرب العالمية الثانية. وليس هناك تقرير يشير إلى أنها كانت تستحوذ على خيال الجيش الأمريكى فى حرب ڤيتنام؛ وهو ما قد يلقى الضوء على نتيجة الحرب الكارثية، ولكنها عادت بقوة إلى مكان الصدارة منذ أحداث سبتمبر ٢٠٠١م. وهى إقرار واضح بأن الرب يقف إلى جانب أمريكا بشكل فريد؛ لأن أمريكا بجانب الحق بشكل فريد. وفى ضوء نصيحتنا للمؤرخين العسكريين، فإن هذا يستحق أن يؤخذ فى الاعتبار تمامًا.

لقد أبصرت عيناى مجد قدوم الرب

إنه يدوس محصول الكروم حيث يخزن عنب الحنق والغضب

لقد أطلق البرق المميت لسيفه السريع

وحقيقته ماضية فى طريقها

المجد، المجد، هاللوليا

المجد، المجد، هاللوليا

المجد، المجد، هاللوليا

حقيقته ماضية فى طريقها

لقد رأيته فى نيران المراقبة فى مائة معسكر مستديرة

لقد بنوا له مذبحًا فى ندى الماء ورطوبته

أستطيع أن أقرأ جملته الصحيحة على ضوء المصابيح المعتمة والمتوهجة

إن يومه ماض فى طريقه

المجد . . . إلخ

لقد قرأت نصًا ناريًا مقدسًا فى الإنجيل فى صفوف مصقولة من الصلب

كما تتعامل مع الذين يحقرونني ، كذلك سوف تتعامل معك رحمتى

دع البطل ، الذى ولدته امرأة يسحق الحية بكعبه

طالما أن الرب يسير إلى الأمام

المجد . . . إلخ

لقد دق الطبول للمسير أمامًا ولن يدعو أبدًا إلى التراجع

إنه ينقى قلوب الرجال أمام كرسى عدالته

أوه ، فلتكونى سريعة يا روحى فى الإجابة عليه ! ولتكونى فرحة يا أقدامى

فإن ربنا يسير فى طريقه

المجد . . . إلخ

فى جمال الزنابق وُلد المسيح عبر البحر

ومعه مجد فى البرعم يتجسد فيك وفى

ومثلما مات ليجعل الناس مُقدسين ، فلنمت نحن لنجعل الناس أحرارًا بينما يسير الرب فى طريقه

المجد . . . إلخ

ومن الواضح أن هذه أنشودة معركة لأمة مختارة ، شعب مختار . إنها الطرف النقيض للشعور الوطنى من الموقف الوطنى الساخر ، بل المستهزئ بالأنشودة التى

كان يرددها الجيش البريطانى بعد سنة ١٩١٦م، والتى تقول كلماتها: «رأيتهم معلقين فوق الأسلاك الشائكة القديمة...»، أو الأنشودة المعاصرة لها، وهى أغنية بريئة لكنها ساخرة بنفس القدر، تقول: «نحن هنا، لأننا هنا، لأننا هنا، لأننا هنا». والتناقض بين الحالتين علامة فارقة فى الشخصية الوطنية ما تزال تنطبق على العصر الحديث، وتشرح ردود الفعل المختلفة تمامًا لأمتين تتشابهان بشكل واضح - فما تزال الاثنتان، فى جوهرهما، أنجلوسكسونيتين وبروتستانتيتين.

والفرق ليس ببساطة هو أن لدى البريطانيين ملكة السخرية وليس لدى الأمريكيين مثلها. كما أن الفرق ليس ببساطة هو أن الأمريكيين ما يزالون يؤمنون بأنهم «مختارون» ولم يعد البريطانيون كذلك. فمن المحتمل، ربما، أن يكون الإنجليز قد بدأوا يؤمنون «باختيار» الأمريكيين، على الرغم من أنهم لم يكونوا ليعترفوا بهذا. ومن المؤكد أن عبارة «عبء الرجل الأبيض» التى استخدمت فى انجلترا بطريقة ساخرة (طبعًا) تُعتبر الآن صالحة للتطبيق على الولايات المتحدة؛ إذ إن عبارة «السلام الأمريكى - Pax Americana» - والتى تعنى ترحيب الأمريكيين بالقيام بدور شرطى العالم - صارت كليشيها شائعًا فى أعمدة كتّاب الصحف البريطانية، وبها مغزى متضمن فى اتجاه العبارة القديمة التى تجاوزها الزمن «السلام البريطانى - Pax Britanica» (والتى نبعت بدورها أصلاً من «السلام الرومانى - Pax Romana» - أى السلام الذى تفرضه الفرق العسكرية الرومانية - فى العصور الكلاسيكية).

إن «ترنيمة الحرب من أجل الجمهورية»، التى تبدو بالنسبة للإنجليز مغالاة فى التعصب والدعوة إلى الحرب، تنتمى فى الحقيقة لنفس التراث الدينى مثل الخاتمة التى كتبتها «هار بيت بيشر ستو» لرواية «كوخ العم توم» التى ناقشناها بالفعل. فقد أعلنت أن أمريكا تحت المحاكمة ما لم تصحح خطأ العبودية؛ أما «هاو» فإنها تبين أن الخطأ قد تم إصلاحه حقّا. كما أنها تقدم أيضًا رابطة أو عبوراً إلى تراث شعب مختار آخر، وكذلك رابطة تربط القرن التاسع عشر بالقرن الواحد والعشرين، وهى تحديدًا الوعى الأسود الأمريكى بالذات فى مصطلحات الكتاب المقدس،

باعتبارهم شعبًا «فى أغلال العبودية» وينتظر الخلاص. والتنميط فى ترنيمة هاو لايضع موسى باعتباره محررًا (على الرغم من أنه فى التنميط المسيحى الكلاسيكى كان موسى نمطًا يسبق المسيح فى التجسد). وهذا أمر غير عادى؛ لأن التنميط كاثوليكى أكثر منه پروتستانتى. وفى البيت الذى يقول: «فى جمال الزنابق وُلد المسيح عبر البحر» ثمة إيماءة إلى الرمزية التى عرفها عصر النهضة: فالزنبقة، زهرة النقاء والطهارة، كانت علامة تقليدية على مريم العذراء.

والقوة الدافعة فى«أنشودة المعركة» تدورحول «الموت لجعل الناس أحرارًا» وهى إشارة واضحة إلى المسيح. إنها ليست عن أولئك الذين حرموا من حريتهم، بحيث ينتزعونها لأنفسهم. ومن المؤكد أنه كانت هناك انتفاضات سوداء فى الحرب الأهلية، وبنهايتها كان هناك ذيل طويل من اللاجئين السود قد ربط نفسه بمؤخرة جيش الاتحاد المنتصر فى الجنوب. بيد أن تحرير العبيد السود كان فى جوهره عملاً من أعمال الجنس الأبيض، الذين تصرفوا على اعتبار أنهم «أمة منقذة» ـ وفى مكان المسيح بالتالى. ولكن ذلك التنميط الآخر الأكثر پروتستانتية، والذى يصور السود مثل العبرانيين فى أغلال العبودية ينتظرون موسى الخاص بهم، لم يكن بعيدًا عن السطح.

ويصف دو بوا، الذى ولد فى غضون خمس سنوات من نهاية الرقيق، كيف أنه وهو شاب مر بخدمة كنسية فى كنيسة زنجية فى عمق الجنوب ـ وليس فى مسقط رأسه (لأنه كان أصلاً من ماساشوستس):

«كان شكل الواعظ الأسود الضخم يهتز ويرتعش بينما تتزاحم الكلمات على شفتيه وتتطاير صوبنا فى فصاحة مفردة. وكان الناس يتأوهون ويضطرون، ثم قفزت المرأة ذات الخدين البارزين والبشرة البنية بجوارى فى الهواء مباشرة وصرخت صرخة مدوية مثل روح ضائعة، على حين عم المكان عويل وأنين وصراخ ومشهد من الوجد الإنسانى لم أر له مثيلاً من قبل. وأولئك الذين لم يشهدوا تهيج الإحياء الزنجى فى غابات الجنوب البكر لا يمكنهم سوى أن يدركوا الشعور الدينى للعبد بصورة غامضة، وتبدو مثل هذه المشاهد شاذة ومضحكة، ولكنها مريعة كما رأيتها».

وقد نمت مسيحية العبيد السود من ديانة أفريقية وثنية، بأناشيدها وأضحياتها وكهنتها الرجال والنساء الساحرات. والإحساس العاطفى الزائد بحضور أرواح غير مرئية لكنها قوية، قد انتقل إلى سياق مسيحى بدائى بفضل اليقظة الكبرى التى وجهها المبشرون الإنجيليون فى القرن الثامن عشر وبواكير القرن التاسع عشر (مع الربط بين القوى الخفية والروح القدس الذى يسوق المتعبد إلى حالة هياج من الفرح الخارق للطبيعة). وقد أنتج الإحياء الزنجى المبشِّر الزنجى وهو أكثر شخصية متفردة طورها الزنوج على الأرض الأمريكية حسبما كتب دو بوا. فقد كان زعيمًا وسياسيًا، وخطيبًا، ورئيسًا جذابًا، ومثاليًا. أما الزعماء السود العلمانيون، الذين كان دو بوا نفسه نمطًا منهم، فلم يكونوا مرتاحين دائمًا إلى هذا التراث الذى يجعل من القسيس زعيمًا ـ كما كانت لا تزال الحال فى خمسينيات القرن العشرين، عند بداية حركة الحقوق المدنية، حيث كان هناك بعض المنافسة على التفوق بين القساوسة السود مثل مارتن لوثر كنج والسياسيين العلمانيين المرتبطين برابطة NAACP الخاصة بـ «دو بوا» نفسه.

ويسجل دو بوا كيف اعتاد الزنوج أن يغنوا:

أيها الأطفال، سنكون أحرارًا

عندما يظهر الرب!

بيد أنه كان مخطئًا فى استبعاد هذا باعتباره مجرد نزعة ألفية ـ تأجيل الخلاص إلى نهاية الزمن، فى المصطلحات البشرية إلى الأبد. أما ما لم يتعرف عليه فهو قوة التنميط البروتستانتى فى تحول قصص الكتاب المقدس إلى حقيقة حاضرة، وأن يجعل من المسيحية قوة للتحرير الحقيقى، وليس الخضوع الدينى. وسيرة الأمة الهاربة هارييت توبمان التى تحمل عنوان: «Harriet The Moses Of Her People» التى كتبتها معاصرتها وصديقتها سارة برادفورد تصف كيف أنها بدأت تربط حالتها فى العبودية بالرسالة التى سمعتها على لسان واعظ فى الكنيسة:

«كان فى عقلها بالفعل أن شعبها هم الإسرائيليون فى أرض مصر، بينما كانت

بعيدة فى مكان ما بالشمال، أرض كنعان، بيد أنها لم تكن لديها بعد أية نبوءة بأنها ستكون بمثابة موسى الذى سيكون زعيمهم، عبر سحابات الظلام والحزن، والنيران والمحن؛ لتقودهم إلى تلك الأرض الموعودة؟ فهذا ما لم تقله أبداً».

وقررت أن تهرب، مع إخوتها؛ ولكن لأن التخاطب بين العبيد كان يعتبر مثاراً للشك من جانب المراقبين، فإنها كانت تتواصل معهم بالأغنية، وهى تعدِّل قليلاً من الكلمات المعروفة جيداً لكى تقول ما تقصده. وبالنسبة للأذن غير المرتابة كانت هذه الكلمات ما تزال أحلامًا ألفية بريئة، الحرية النهائية «عندما يظهر الرب». ولذلك فإن هارييت توبمان، فى اللهجة التى نسبتها إليها برادفورد، كانت قادرة على أن تغنى بصوت عال، دونما خوف من التحقيق، رسالتها المشفرة ـ «لقد حان الوقت»:

عندما تأتى تلك العربة القديمة

سوف أترككم

إننى متوجهة إلى الأرض الموعودة

أيها الأصدقاء، إننى سوف أرحل عنكم

إننى آسفة لترككم أيها الأصدقاء

الوداع، آه، الوداع

لكننى سوف أقابلكم فى الصباح

الوداع، آه، الوداع

إننى سوف ألقاكم فى الصباح

عندما تصلون إلى الأرض الموعودة

على الضفة الأخرى من الأردن

لأننى متوجهة إلى الأرض الموعودة

وقد تذكروا الأغنية زمنًا طويلاً بعد رحيلها. فقد كانت صافية فى تلك الليلة وسرعان ما وصلت إلى ملاذها الآمن، حيث لم يكن ممكنًا أسرها من جديد وإعادتها. فى البداية كان هذا يعنى نيويورك- والأردن الذى أشارت إليه أغنيتها كان هو نهر أوهايو الذى يفصل كنتكى (ولاية العبيد) عن أوهايو أو إلينوى (الحرة). وبمرور الوقت صارت هى المنظمة لواحدة من السكك الحديدية السرية (حسبما أطلقوا عليها) التى كانت تشجع العبيد على السعى نحو السلامة على امتداد ذلك الطريق. وتنسب إليها كاتبة سيرتها الفضل فى كثير من المهام الناجحة وقيادة مئات من العبيد الأفراد إلى طريق الحرية، فى ظل ظروف بالغة الخطر دائمًا. ولو أنها وقعت فى الأسر لكانت قد قُتلت، شنقًا أو جلدًا بالسياط حسبما كان يُفترض. وبعد مرسوم ١٨٥٠م الخاص بـ «العبيد الهاربين - Fugitive Slave Act»، والذى سمح بعودة العبيد الهاربين حتى من الولايات الحرة، لم يكن هناك أمان خارج كندا- وصار نهر «الأردن» الأسطورى الذى ينبغى عبوره إلى حيث الحرية هو نهر نياجرا الذى كان يفصل الولايات المتحدة عن الأراضى البريطانية. وتُعطى برادفورد وضعًا مؤثرًا لرؤية توبمان للملكة ڤيكتوريا، التى تصورتها تقف كأم ملكية على الضفة الكندية من النهر؛ لكى ترحب بالعبيد الهاربين. وبالنسبة للعبيد فى الجنوب كانت كندا رمزًا أو مفهومًا بقدر ما كانت مكانًا، كانت الأرض الموعودة. وكان نهر الأردن هو حدود كنعان التى تحدث عنها الكتاب المقدس، الأرض التى وعد بها الرب الإسرائيليين بعد هروبهم من مصر تحت قيادة موسى والتيه الذى استمر أربعين سنة فى قفار سيناء: «إلى أن أعبر الأردن إلى الأرض التى أعطانا الرب إلهنا» (سفر التثنية: ٢: ٢٩).

وكانوا فى طريقهم إلى الشمال ينشدون الأغنية الروحية «اهبط يا موسى»، وهى الأغنية التى كانت ممنوعة فى الجنوب:

اهبط يا موسى

اهبط فى الطريق إلى أرض مصر

قل لفرعون العجوز

دع شعبى يذهبون

أوه قال فرعون إنه سيعترضهم

دع شعبى يذهبون

ولا تضع فى البرية

دع شعبى يذهبون

قد تحتجزنى هنا، ولكنك لا تستطيع أن تعوقنى هناك

دع شعبى يذهبون

فهو يجلس فى السماء يستجيب للصلاة

دع شعبى يذهبون

كانت فترة حياة دو بوا (١٨٦٨ ـ ١٩٦٣م) تتطابق مع حياة كل من هارييت توبمان (١٨٢٠ ـ ١٩١٣م) ومارتن لوثر كنج چونيور (١٩٢٩ ـ ١٩٦٨م) وكان كنج ابنًا لقسيس، ولا بد أنه قد انغمس منذ طفولته فى هذا النوع من التنميط المرتبط بالخروج. كتبت كيث د. ميللر فى كتابها «The Voice of Deliverance»:

«تعلم كنج ما يتعلق بديانة العبيد من أبيه، الذى كان مبشراً شعبيًا، وتبنى رؤيتها للخلاص أساسًا لأفكاره وخطبه... فعلى مدى عشرات طويلة من السنين كان العبيد يمارسون ديانتهم تحت ظروف غاية فى الصعوبة؛ إذ كانت القوانين تمنعهم عادة من تعلم القراءة والكتابة، بحيث كان أغلبهم غير قادرين على قراءة الكتاب المقدس. وهكذا كانت المواعظ تخدم ليس باعتبارها وسيلة مهمة للتوجيه الدينى فحسب، وإنما كانت بالنسبة لكثيرين من السود، الوسيلة الوحيدة للتوجيه باستثناء الموسيقى. وكان معظم المبشرين، مثل رفاقهم العبيد، يفتقرون إلى ما يعينهم سوى أن يستقوا الدين من المبشرين الآخرين ـ وليس من الكتاب المقدس أو غيره من النصوص».

وقد أدى هذا إلى نتيجة واضحة: فقد كان على كل واعظ أن يكون لديه مخزون

من العظات فى ذاكرته يمكن أن يأخذ منه أو يعدله كلما دعت الضرورة؛ وغالبًا ما كانت هذه العظات مؤلفة من عظات سمعها هو نفسه من وعّاظ آخرين؛ ولذلك كان مخزونه من العظات نوعًا من تراكم حكمة الشعب. وكان لا بد لهذا أن يضيف إلى سلطته، حتى بين أولئك الذى يعرفون المصادر التى استعار منها. ولم يكن من المعتاد أن تتم الإشارة إلى المراجع، كما لو كانت الموعظة مقالة أكاديمية مدعمة بالهوامش، بل إن هذه الاستعارة غير الموثقة لم تكن تعتبر سرقة أدبية غير عادلة. فقد كانت تعنى بصفة خاصة مجازًا أو صورة مؤثرة ـ أو اقتباسًا من الكتاب المقدس ـ يمكن إعادة استخدامها بحسب الحاجة. ويمكن للمرء أن يُشبّه هذا بمنشور بابوى يمكن تطعيمه باقتباسات من منشورات أخرى لبابوات سابقين. والغرض هو إظهار استمرارية تراث التعاليم البابوية ـ تمامًا مثلما يفعل واعظ أسود، باستخدام وتعديل كلمات الوعّاظ الذين سبقوه؛ لكى يوضح استمرارية تراث الوعظ الذى هو حارسه والمتحدث باسمه.

ويحوى القصد المزدوج لوداع هاربيت توبمان لرفاقها العبيد فى الأغنية التى اقتبسناها فيما سبق رسالة لاهوتية عميقة. فقد كانت ديانة العبيد تتجه إلى هذه الدنيا وإلى الحياة الآخرة أيضًا: فقد كانت تتعلق بالتحرر من الخطيئة والتحرر من الأسر الجسدى أيضًا (مثلما كانت ديانة العهد القديم فى الواقع). والكلمات أو العبارات التى كان يمكن أن تنطبق على أى من المعنيين كانت شائعة، كما أن اللعب بالكلمات كان محل تقدير ومصدرًا للاستمتاع. وكان مالك العبيد المسيحى يجد من الصعب عليه أن يعترض على العبيد المسيحيين وهو يغنون عن موسى وهو يخلّص العبرانيين من مصر، حتى لو كان يعرف أنهم يغنون عن الخروج عليه.

كانوا أيضًا يقدمون الأمل فى هذه الحياة. وأحد التجليات الواضحة فى ديانة العبيد الدنيوية كان هو التشبه الكثيف وواسع الانتشار بشخوص العهد القديم. وكان العبيد يتعاطفون بعمق مع نضالات مريم ودانيال ونوح وحزقيال ويوشع ويونس وموسى ـ الذين أسهم معظمهم فى انتفاضات اجتماعية، والذين يشخص

كل منهم بصورة بارزة فى الشئون الروحية. ومع يسوع، كان أبطال العهد القديم الذين يحبهم الرقيق قد واجهوا صعوبات ومشاقّ مرعبة قبل أن يحرزوا الانتصارات الزاهية. وكان العبيد يرون فى هذه الصعوبات ما يتشابه مع الاضطهاد والكبت اللذين يعانون منهما، ويرون فى قصص النجاح التى يتحدث عنها الكتاب المقدس بشائر لتحررهم الآتى على نمط الكتاب المقدس...

وإذ عبر الأمريكيون الأفريقيون عن ولعهم الخاص بموسى، شاع اعتبارهم صنوًا للشعب المختار الأسير فى مصر - وهو تشبيه واضح فى كثير من الأمور الروحية حول موسى، وفرعون، والبحر الأحمر، والبرية/ أو الأرض الموعودة... وفى سنة ١٨٠٨م فسّر الواعظ الأمريكى الأفريقى البارز أبسالوم چونز قانونًا وطنيًا يحرم تجارة الرقيق على أنه عمل من أعمال العناية الإلهية يساوى الخروج. وتمامًا مثلما «هبط الرب لكى يخلِّص» الإسرائيليين من المصريين، أعلن چونز أنه «هبط فى البرلمان البريطانى» حينما جرّم السفن التى تحمل الرقيق، «وهبط فى الكونجرس بالولايات المتحدة» عندما وافق على حظر مماثل.

وحتى قبل نهاية الرق، بحسب الدليل الذى يقدمه ميللر، كان الوعّاظ السود الذين كانت غالبيتهم أميين، قد صاغوا تنميطًا پروتستانتيًا كاملاً كان له أن يمنح الجدارة لمبشر پيوريتانى لجيش كروموويل النموذجى الجديد، قبل قرنين من الزمان. أما كيف حدث هذا النقل للأفكار؟ فهو أمر ربما لا نعرفه أبدًا، طالما أن العملية كانت بالضرورة شفوية ولم يتم تسجيلها بدرجة كبيرة. وقد شقت الصحوة العظمى الثانية آثارها داخل جمهرة العبيد السود فى أعماق الجنوب منذ تسعينيات القرن الثامن عشر فصاعدًا. ولم يكن بإمكان العبيد أن يقرأوا أو يكتبوا ولكن ثقافتهم كانت بالفعل ثقافة الأغنية والإنشاد، وجاء التعبير عن المشاعر الدينية بالأغنية متوافقًا معها بصورة طبيعية.

ومضت الأناشيد الدينية الزنجية قُدمًا بهذا التراث بدرجة كبيرة. وإحدى الإشارات الباكرة إلى التنميط البروتستانتى المُطَبّق على العبيد السود، وردت فى مجموعة لمثل هذه الأناشيد الدينية الزنجية نشرها ريتشارد آللن، الذى كان هو

نفسه واعظًا أسود ثم صار أسقفًا فيما بعد سنة ١٨٠١م. وإذ كان مطرودًا من كنيسته الميثودية المحلية (البيضاء)، أسس ما صار يعرف باسم «الكنيسة الأسقفية الميثودية الأفريقية». ولكن«مثال الخروج» التنميطى هذا للعبيد السود كان من الواضح أنه لم يكن معروفًا لچون ويسلى مؤسس هذا المذهب البروتستانتى الميثودى، على الرغم من أنه كان من أوائل المعارضين الإنجليز للرق. وهكذا ربما يكون التنميط البروتستانتى قد أدخل إلى المسيحية السوداء من التراث التغميدى الذى يضرب بجذوره فى البروتستانتية الكالڤينية، وليس من الجانب الميثودى.

بل إن دقة هذا النقل للتنميط من البروتستانتية البيضاء إلى البروتستانتية السوداء قد امتد حتى إلى مفهوم «الزمن المقدس» ـ الذى كان يعرف من وجهة النظر اللاهوتية بأنه تاريخ الخلاص ـ والذى تحولت الحوادث الماضية عن طريقه إلى حوادث معاصرة. ويشرح ميللر كيف تبنى الوعّاظ السود هذه المبادئ:

«يمكن للتنميط أن ينطبق على الحاضر أيضًا؛ لأن المسيحيين قد يعاملون الأشخاص والحوادث التى ذكرها الكتاب المقدس على أنها أنماط يتكرر حدوثها عبر الوجود الإنسانى حتى اللحظة الحاضرة. ومن ثم، فإن التنميط يقولب التاريخ فى نماذج حسب أشكال من التجارب يمكن معرفتها وقابلة للتكرار. إنه لا يقدم ببساطة مجرد نظام من الرموز؛ لأن المؤمنين يرون فى الحوادث التنميطية حقيقة حرفية. كما أن التنميط لا يستدعى التشابه؛ لأن التنميط، بخلاف التشابه، يقدم ويدعم رؤية شاملة ومتماسكة للعالم، توائم التجربة البشرية فى نظام من التفسير يتسم بالمرونة والعنف فى آن واحد».

ودور العناية الإلهية فى هذا التنميط الأسود واضح، أما ما هو أقل وضوحًا، فهو يتعلق بمن بالضبط الذى يؤدى الأدوار الأخرى فى الدراما التنميطية الخاصة بالتحرير/ الخلاص الأسود ـ مَن الكنعانيون؟، مثلاً، وأين الأرض الموعودة؟ وما العلاقة بين هذا الشعب المختار الأسود ومن سبقوه فى ادّعاء اللقب لأنفسهم؟، خاصة الشعب المختار الأبيض الذى نشأ أصلاً من المستوطنين البيوريتان الأوائل

فى نيوإنجلاند؟ هل تم تجاوزهم بكل مغزى ودلائل التجاوز التى ناقشناها فى الفصل الثالث؟ وهل الشعب المختار الجديد سيتم تحديده على أساس عرقى (مثل الشعب المختار فى العهد القديم) أم أن أى إنسان يمكن أن ينضم إليه؟

وربما كان ينبغى أن تكون إجابة الواعظ الأسود هى أن الدراما لم تتكشف سوى إلى هذا الحد، وأن الشعب المختار ما يزال فى رحلته بعد الأسر عبر البرية، ولم تقع أبصارهم بعد على الجهة التى يقصدونها. وربما كانت للأسئلة المطروحة فى السطور السابقة إجابات، بيد أنه لم يتم التوصل إليها بعد. ومن المحتمل أكثر أن التنميط قد بدأ ينهار ويصبح مجرد مجاز بلاغى، بحيث يفقد خاصيته الإعجازية التى يشير إليها ميللر، وأن الأرض الموعودة قد تمت صياغتها بشكل روحى فى حالة عاطفية، أو سياسية أو اقتصادية ـ التحرير من العبودية، والمساواة، ونهاية الانحياز العنصرى، وتكافؤ الفرص، وكل الأهداف الأخرى التى تسعى إليها حركة الحقوق المدنية العلمانية. فعلى سبيل المثال أعلن الواعظ الأسود ل. ج. كوبين، بعد خمسين سنة من «إعلان التحرير» أنهم وصلوا إلى حدود الأرض الموعودة «وأرض كنعان التى ننال فيها حقوق المواطنة أمامنا بالضبط». وبذلك يكون أولئك الذين عارضوا إعطاء السود حقوق مواطنة مساوية هم الكنعانيين الذين قاوموا دخول الشعب المختار.

وذلك مجاز واستعارة بلاغية لطيفة، ولكن أهمية الكنعانيين فى العهد القديم تتمثل فى أنهم كانوا أساسًا من عبدة الأصنام، يعبدون آلهة مزيفة ويغرون الإسرائيليين بأن يفعلوا مثلهم. وفى نموذج كوبين، فإن الكنعانيين (هم الذين يؤمنون بالتفوق من البيض، وليس مجرد المتطرفين، ولكن رأى الأغلبية البيضاء فى الوقت الذى كان يتحدث فيه) هم بالتحديد الذين يرفضون السماح للناس السود بأن يصيروا مثلهم ـ أى يرفضون السماح لهم بأن يؤمنوا بالعقائد وأن يعبدوا الآلهة التى يعبدها المجتمع الأبيض (الديموقراطية والمساواة والرأسمالية، والمادية وأى شىء آخر) وليس أنهم يصرون أن يفعلوا ذلك. وهذا قلب خطير للأوضاع.

وإذ كان اللاهوتيون البيض قد تخلّوا عن التنميط البروتستانتى باعتباره موضوعًا جديرًا بالتأمل اللاهوتى الجاد فى وقت ما من القرن التاسع عشر فإن اللاهوتيين السود أمامهم عوائق تحول دونهم إذا ما رغبوا فى إخضاع تراثهم الخاص لدرجة من التحقيق الصارم. بيد أنهم ليسوا وحدهم تماما؛ إذ إن السنوات الثلاثين الأخيرة قد شهدت تطور عدة مدارس حديثة فى «لاهوت الخروج»، أبرزها ما يسمى «لاهوت التحرير بين الكاثوليك الرومان فى أمريكا اللاتينية». وهى أقل حرفية من حيث إنها لا تحاجج مباشرة من حوادث وشخصيات الكتاب المقدس إلى حوادث وشخصيات الحاضر. ذلك أن هناك أسبابًا تدعونا للظن بأن مارتن لوثر كنج، انطلاقًا من دوائره التعليمية والفكرية التى كان يتحرك فيها، كان يدرك هذا، حتى لو كان قد اغتيل فى ذات الوقت الذى كان فيه لاهوت التحرير قد بدأ يسترعى انتباه المفكرين - ويستدعى الهجوم الشرس - فى العالم الأوسع.

لقد تولى كنج زمام شكل دينى لحركة الحقوق المدنية كان أكثر وضوحًا داخل الجماعة السوداء منها خارجها. وحتى الآن، فإن تعامل البيض مع الحقوق المدنية فى الثقافة الشعبية - أفلام هوليوود مثل فيلم «Mississippi Burning» مثلاً - يميل إلى التعاطف مع الديانة السوداء باعتبارها مصدرًا ساذجًا للراحة، وليس باعتبارها الحافة القاطعة لاحتجاج السود. كما أن الثقافة الشعبية لا تعطى الجدارة - وهنا يكون فيلم آلان باركر مذنبًا مرة أخرى - لمذهب كنج عن اللاعنف وعن القوة الخلاصية للمعاناة الظالمة. فقد كان منهجه المختار فى النشاط السياسى مُصاغًا بعناية حسب نموذج المهاتما غاندى، ولكنه يستلهم تعاليم العهد الجديد مباشرة مثل خطبة يسوع فوق الجبل. وحتى الآن، لم يتم تقدير المغزى الحقيقى لهذا بشكل صحيح. وكمجتمع يحترم العنف ومن يستخدمونه، فإن اللاعنف لم يكن يروق للمزاج الأمريكى، ومن ثم، فإن اللاعنف، مهما كان استخدامه ناجحًا، يصير خفيًا ويكاد يكون منسيًا.

لقد عمل كنج داخل إطار المذهب الذى كان راسخًا بالفعل والقائل بأن السود «شعب» وليسوا مجرد مجموعة من الأفراد ذوى الأصول المتشابهة والبشرة

المتماثلة. وقد استخدمت كلمة «شعب» استخدامًا تنميطيًا؛ لكى تعنى: «نحن الإسرائيليون المحدثون، شعب الرب، شعبه المختار». (وهذا يثير السؤال: عما إذا كانت كلمة «سود» يجب أن تُستغل؟، والواقع عما إذا كانت كلمة «بيض»، باسم الاتساق، يجب أن تُستغل أيضًا؟. وفى نص مثل هذا الفصل ليست هناك إجابات شافية على مثل هذه الأسئلة). وكلمة «شعب» ليست بالضرورة مساوية لكلمة جنس بالمعنى العرقى الضيّق؛ لأن كثيرين من أولئك المقبولين أعضاء فيه ربما يكون نصف، أو ربع، سود «خالصين» عن طريق اختلاط الأبوين أو الجدين. وهى تقترب أكثر من فكرة «الأمة» حسبما استخدمها بندكت أندرسون فى نظريته عن «الجماعات المُتخيّلة» - باعتبارها «علاقة رفقة أفقية عميقة» تحدد «الناس الذين مثلنا» وتفصلهم عن «الناس الذين ليسوا مثلنا».

وفى حالة الناس السود - «الجماعة السوداء» أو «جماعة الأمريكيين الأفارقة» ستكون هى التعبير المعاصر - كان لتحديد من نحن تاريخيًا ارتباط كبير بتحديد من «هم» الذين يقولون «نحن»؛ إذ إن السود قبلوا أولئك الذين قالت عنهم الجماعة البيضاء: إنهم سود باعتبارهم سودًا، وهو أمر فى العلاقات العنصرية الأمريكية، فى الماضى على الأقل، كان يعنى أولئك الذين تم رفضهم؛ لأنهم لم يكونوا بيضًا بالقدر الكافى (ربما لأن أصولهم العنصرية مختلطة). وقد تخيلت الجماعة الأنجلوسكسونية البيضاء «المُتخيّلة» نفسها على أنها جماعة بيضاء البشرة، أو كانت تتخيل ذلك على الأقل منذ حركة تحرير الرقيق. وقبل ذلك، وفى ظل قوانين الرق كانت مكانة العبد أو الحر، فى حالة اختلاط عنصرى الأبوين، تتحدد بوضعية الأم، (وليست مصادفة أن هذا يتماشى مع تحديد اليهودى فى التوراة الشفوية الهالاكاه، أو الشريعة اليهودية القديمة). وعلى الأقل فى القرن الثامن عشر، كان التراث فى انجلترا نفسها - حيث كان الرق غير قانونى - مختلفًا: إذ كان يمكن قبول المرء باعتباره سيدًا إنجليزيًا أسود (أو مختلط العرق) إذا ما كانت بحوزته أوراق الاعتماد الاجتماعية.

وفى ظل الرق، إذا ولدت امرأة بيضاء طفلاً مختلط العرق أنجبته من رجل أسود

لم يكن الطفل ليخضع للرق؛ وعلى العكس، كان الطفل يصير عبداً إذا أنجبته امرأة سوداء من رجل أبيض. وبقدر ما كان المظهر يبدو، لم يكن ممكنًا، على أية حال، فصل الحالتين عن بعضهما، ولذلك فإنه حتى الشخص الحر ذا الأصول المختلطة، وأمه امرأة بيضاء، كان لا بد أن يواجه بعض الصعوبة حتى لا يُحسب عبداً. وربما لا يكون مدهشًا أن عضوية مثل هذا الشخص فى الجماعة البيضاء كانت تُعتبر تجريبية بطريقة ما. وأى شخص أسود أو من أصول عرقية مختلطة كان يُعامَل باعتباره عبداً إلا إذا أثبت العكس. وبعد إلغاء قوانين الرقيق، عندما تم إضفاء الشكل الرسمى على التفرقة العنصرية فى ظل نظام چيم كرو، كان وجود أحد الوالدين من السود فى زيجة مختلطة يحدد وضعية الشخص بأنه أسود من الناحية القانونية. وليس هناك منطق فى هذا، طالما أن شخصًا ما نصف ونصف كان يمكن اعتباره نظريًا عضواً فى أىّ من المجموعتين أو فى كلتيهما. بيد أن القاعدة تؤكد على فهم السواد على أنه شىء يلطخ أو ينجّس، أو يلوث البياض: وكان للنازى تعامل مشابه مع الناس الذين ولدوا لأبوين أحدهما يهودى والآخر آرى. وإذا كان أحد الجدود يهوديًا كان هذا كافيًا لحرمان أى شخص من مكانة الآرى «النقى».

وهكذا امتدت عضوية الجماعة السوداء لتشمل كل أولئك المستبعدين من الجماعة البيضاء. ومرة أخرى، إذا أخذنا فى اعتبارنا تحديد أندرسون «للجماعة المُتخيّلة» فإن «الرفقة الأفقية العميقة» التى يتحدث عنها هنا تشير إلى تجربة مشتركة من الاستبعاد العنصرى والانحياز. وهذا أمر مسيحى معترف به بطريقة شاملة ويفترض وجود إدراك حاذق من التضامن باعتباره مبدأ أخلاقيًا (وبعض التأمل الواعى فى مثل السامرى الطيب، على سبيل المثال). ولا يعنى هذا أن الجماعة البيضاء قد سُمح لها بأن تحدد الجماعة السوداء بسياسة الاستبعاد التى انتهجتها: وإنما تعنى أن الجماعة السوداء قد قررت لنفسها أن تتبنى «معاناة عنصرية مشتركة»، باعتبارها العلامة المميزة لأولئك الذين اختاروا أن تشعر معهم «بالرفقة الأفقية العميقة».

أما ما أعاد فرض هذا الإحساس بشعب مختار أسود منفصل فكان فشل

البروتستانت البيض، حتى من يبشرون بالإنجيل الاجتماعى التحررى (المعادل الأمريكى للاشتراكية المسيحية الإنجليزية)، فى تحديد، والاحتجاج على، الأدلة المتزايدة على الفصل العنصرى، والتعصب فى الجنوب ما بعد الحرب الأهلية. إذ لم يكن هناك تضامن كاف مع البروتستانت؛ لكى يهدم أسوار الفصل الدينى الذى كان بالفعل قد قسّم الطوائف الرئيسية (فيما عدا الكنيسة الأسقفية والكاثوليك الرومان) إلى فرعين متمايزين أبيض وأسود من نفس الكنائس. وعلى أية حال، لم تكن البروتستانتية السوداء تحررية بشكل خاص، لا من الناحية اللاهوتية ولا من الناحية الأخلاقية؛ إذ كانت البروتستانتية السوداء ستبدو أصولية بشكل غير مرض بالنسبة لأىّ لاهوتى من التيار الرئيسى فى كلية من كليات «إيفى ليج-Ivy League»، ومن ثم لم يكن من السهل عبور الحدود العنصرية للوصول إلى الأفكار التحررية لدى البيض، «لم يحدث أبدًا أن برز العنصر على أنه موضوع دينى سائد بالنسبة إلى البيض قبل مقاطعة حافلات مونتجومرى سنة ١٩٥٥م» حسبما يكتب ميللر، «لقد كان ذلك الحادث هو الذى جلب لمارتن لوثر كنج الشهرة العالمية».

فقد اعتبر كنج أن الإنجيل الاجتماعى يعيد وضع المكون الأساسى المفقود فى النزعة الفردية التى تميز البروتستانت البيض، بحيث يدين أية «ديانة تتعامل مع أرواح البشر ولا تهتم بتلك الأحياء القذرة التى تلعنهم...» على أنها أوشكت على الموت روحيًا، بيد أن نوع البروتستانتية السوداء الذى قدمه لم يكن بحاجة إلى إنجيل اجتماعى لكى يذكّره بذلك، كما أن نضاله العام من أجل الإنجيل الاجتماعى كان قائمًا على أساس خلق قضية مشتركة مع البروتستانتية البيضاء، بدلاً من أن يقدم إضافة مهمة إلى عقيدته الخاصة. وبعبارة أخرى، كان للبروتستانتية السوداء إنجيلها الاجتماعى الخاص بها، ومنذ وقت طويل قبل أن يصك والتر روشينبوش (مؤلف«Christianizing The Social Order» سنة١٩١٢م). ولا بد أن التبشير بالعدالة الاجتماعية كان علامة مميزة لكل موعظة سمعها كنج فى حياته؛ لأن هذا كان قد صار التفسير الأسود المعتاد للعهد القديم منذ أيام العبودية. لقد كان ذلك النتيجة المباشرة لاعتبار السود تنميطيًا شعبًا ينتمى للكتاب المقدس- مثل الإسرائيليين القدامى فى هروبهم من استعباد المصريين لهم.

ولم تكن مشكلة كنج هى الاضطرار إلى إقناع المسيحيين السود بأن الفصل العنصرى أمر يناقض كلمة الرب. وإنما كانت مشكلته مع المسيحية البيضاء لا سيما رأى الأغلبية فى أوساط البروتستانت فى الولايات المتحدة (على الرغم من أنه كان منتشراً بين السواد الأعظم أكثر منه بين الزعماء)، وهو الرأى الذى كان يرغب فى مجرد «حائط فصل» بين الكنيسة والدولة (على حد تعبير چيفرسون) بل حائط فصل أعلى فى بنيانه بين الدين والسياسة، ولم يكن هناك تصريح بمثل هذا الحائط فى الكتاب المقدس - «. . . أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله» (متى ٢٢ : ٢١) وهو نص لا يقترب من الحالة بأى شكل. ولكن المذهب الكالڤينى الذى اعتنقه الرواد الأوائل فى نيوإنجلاند، الذى كان آنذاك منتشراً بشكل واسع وإن كان ضعيفًا فى أعماق الجنوب، قد مرر الرسالة القائلة بأنه إذا كان الازدهار علامة على موافقة الرب، فإن الفشل، والخراب والجهل والدونية الاجتماعية، كانت علامات على عدم موافقة الرب. **وثمة قطعة علمية مزيفة لتعزيز هذا قدمتها النظريات المزورة التى قدمها الداروينيون الاجتماعيون الذين اعتقدوا أن النظام الفئوى فى المجتمع الأمريكى - الذى كان قد ألغى الأرستقراطية وورث الامتيازات الطبقية - كان انعكاسًا لمبدأ البقاء للأفضل. ومن ثم فإن أولئك الذين بقوا فى أدنى مستوى كانوا هم الذين لا يصلحون، كما أن الحالة الاقتصادية المتدنية للسود كشفت عن أنهم ضمن هذه الفئة.**

وبدا أن هذا كله يتعزز باللعنة التى انصبت على نسل حام - نسله من ابنه الذى سُمى كنعان؛ ليكون خليقًا بهذه اللعنة - **التى وردت فى سفر التكوين (٩: ٢٥) والتى حكمت عليهم جميعًا بالعبودية الدائمة «فقال ملعون كنعان. عبد العبيد يكون لإخوته»**(*). ولكن فوق هذا كله، فإن الكالڤينية لم تتخل تمامًا عن القدرية التى عرّفت «المختارين» بأنهم أولئك المعروفون فعلاً للرب، المجموعة المغلقة،

(*) ملخص القصة التوراتية: أن نوحًا شرب حتى سكر، وبعد أن سكر تعرى، فرأى عورته ابنه حام، فأخبر أخويه سام ويافث، فدخلا الخيمة فغطيا عورة أبيهما نوح - دون أن ينظرا إلى عورته - وعلم نوح ذلك عندما أفاق من السكر، فإذا به يلعن كنعان بن حام ويقول قولته الشهيرة التى تبرر عبودية الكنعانيين للساميين - المترجم.

القبيلة الإنجليزية البيضاء، الشعب المختار المرئى الذين كانوا أول من اعتنق البروتستانتية من الأنجلوسكسون. **ونظريات كل من چون بيل وچون فوكس التاريخية عن أن المسيحيين الأصليين الخلّص هم الإنجليز، والذين زُرعت عقيدتهم داخل الذكرى الحية للمسيح نفسه على يد يوسف الرامى، هذه النظريات تركت على الأقل شائعة عن أن أولئك الذين يمكنهم الزعم بأنهم يحملون دماء أنجلوسكسونية طيبة هم المقربون من الرب بصفة خاصة. وقد امتدت هذه الشائعة فى أعماق الجنوب فى جوهر أيديولوچية الكلوكلوكلان.**

والنسخة المتطرفة لمثل هذا التفكير الأسطورى تمثلت فيما يسمى حركة «**الإسرائيليين البريطانيين**»، التى اجتذبت فى البداية انتباه الناس فى القرن التاسع عشر بزعمها أن البريطانيين كانوا نسلاً حقيقيّا (چينيّا)، للقبائل العشر المفقودة الأسطورية من بنى إسرائيل، والتى اختفت من تاريخ الكتاب المقدس بعد أن استولى الآشوريون على المملكة الشمالية. وهكذا فإن «الحجر» المستخدم فى حفلات التتويج البريطانية، كان يقال: إن أصله يرجع إلى الملك داود (النبى) وحُمل إلى اسكتلندا للحفاظ عليه. وفى وقت ما زار يسوع نفسه القبائل العشر. هذا الاختراع - لأن مصطلح «أسطورة» يعطيه جدارة لا يستحقها - يبدو أنه السبب وراء تساؤل وليم بليك الشهير فى ترنيمة «القدس»:

وهل هذه الأقدام فى الزمن القديم

كانت تمشى فوق جبال انجلترا الخضراء؟

وهل كان حَمَل الرب المقدس

قد شوهد فوق مراعى انجلترا البهيجة؟

كان زعم الإسرائيليين البريطانيين شائعًا على مدى فترة من الزمن على اعتبار أنه أساس وطنى للإمبراطورية البريطانية. ومن بين أولئك الذين لم يوافقوا عليه كان أولئك الذين أحسوا أنه يقلص من قوة الرأى الأكثر شيوعًا وشبه الرسمى، بأن البريطانيين هم السلالة الروحية (ولكن ليس الفعلية) للشعب العبرانى. وهناك

جماعات أمريكية على أقصى اليمين تصرح بصيغة نشأت فى البلاد عن أصل الاعتقاد فى الإسرائيليين البريطانيين، ويخلطون هذا بالأساطير النازية عن الجنس الآرى؛ ومن نافلة القول أن نقول: إنهم فاشيون. وتظهر صيغة أخرى مختلفة تمامًا فى نظام الإيمان لدى طائفة المورمون.

وفكرة «الشعب المختار» فى الكالڤينية الجديدة عن ميثاق أمريكى أبيض مع الرب كانت لها نتائجها وعواقبها؛ إذ إنها حددت الأرض الموعودة ـ شبه القارة الأمريكية الشمالية ـ كما أنها حددت أيضًا أعداء البروتستانت الأمريكيين البيض. وكانوا يتمثلون إما فى الفئات الكلاسيكية التى تم تجاوزها، مثل البريطانيين واليهود والكاثوليك ـ الذين كان الرب قد تبرأ منهم ـ أو الفئات الكنعانية الكلاسيكية، من الأمريكيين الأصليين والسود ـ والذين كان الرب قد لعنهم وجعلهم فى مكانة أدنى، **وفى كل حالة أوضح التنميط البروتستانتى كيف كان يمكن التعامل معهم.** فلم يكن الكاثوليك واليهود والسود يستحقون معاملة أفضل من معاملة أعداء شعب الله المختار القديم تحت قيادة موسى، ويوشع وجدعون والباقين. **وكان أى عدو للقبيلة البروتستانتية البيضاء يعتبر عدوًا للرب؛ ودفاعًا عن القبيلة البيضاء، كان القتل مباحًا فى النهاية.** هذا التنميط ـ الذى كان يمكن الزعم بأنه مستمد من الكتاب المقدس بشكل جامد ـ كان قد انطلق فى الجنوب بعد الحرب الأهلية ليحل محل الأيديولوچية القديمة عن الطبقة والنشأة والهيراركية و«الالتزام النبيل» الذى «ذهب مع الريح» عندما سار شيرمان عبر چورچيا يدمر كل ما يقابله.

وبحلول منتصف خمسينيات القرن العشرين، كان هناك افتراضان ناضجان ولكنهما متنافسان ولا يمكن التوفيق بينهما بأى حال، عن وضع «الشعب المختار» فى الجنوب، ويدعى كل منهما أن الكتاب المقدس مصدره ولكل منهما تنميطه الخاص اعتمادًا على الكتاب المقدس. وبينما كانا متعارضين، وقد سحب كل منهما خنجره ليطعن الآخر، كانت حركة الحقوق المدنية تطالب باستكمال أجندة ما بعد الحرب الأهلية التى عبر عنها لينكولن فى خطابه فى جتيسبرج. هذا التصوير الدينى لأزمة العلاقات العنصرية فى أمريكا فى خمسينيات وستينيات القرن

العشرين ليس هو التصوير العلمانى ولا الماركسى، الذى كان المعلقون يفضلونه عادة، ولكن مما لا شك فيه أنه كانت له قوة أكبر فى شرح الأزمة أو إلقاء الضوء عليها. كما كانت له أيضًا تضمينات مهمة بالنسبة للعلاقات العنصرية البريطانية.

وإذا كانت أهم موعظة ألقيت فى أمريكا فى القرن الثامن عشر هى التى تحمل عنوان: «الخطاة بين يدى رب غاضب» والتى ألقاها جوناثان إدواردز، فمن المؤكد أن أهم خطبة وعظية أمريكية فى القرن العشرين هى التى تحمل عنوان: «أنا عندى حلم» والتى ألقاها مارتن لوثر كنج أمام حشد من مائتى ألف شخص فى واشنطن فى أغسطس سنة ١٩٦٣م. وهى قطعة بلاغية جميلة التأليف، فهى على الأقل تنافس أية خطبة من خطب ونستون تشرشل (الذى حظى باعتراف واسع بأنه أعظم خطيب باللغة الإنجليزية فى القرن العشرين)، وقد ألّفها شخص ما له أذن حساسة تجاه التوازن فى كل عبارة وصوت كل مقطع. كان هذا درس حياته كواعظ أسود، بالإضافة إلى موهبته الخاصة النادرة.

وتبدأ ترنيمة «أنا عندى حلم» بأن يذكّر سامعيه - ولكن أساسًا سامعيه الغائبين - أى أمريكا البيضاء - بوعودها لأمريكا السوداء. وهو يشير إلى إعلان الاستقلال، وخطاب جتيسبرج، وإعلان تحريم الرق، ويقتبس منهم بطريقة مفحمة. وفى البداية تبدو الترنيمة علمانية إلى حد كبير، على الرغم من بؤرتها الأخلاقية القوية. ولا تبدأ الخطبة فى اتخاذ شكل الموعظة سوى فى منتصفها، وعلى الرغم من أن كنج كان قد اتخذ بالفعل طريق المبشر فى طرح قضية مثل استخدام عبارات متكررة دوارة:

«هناك أولئك الذين يسألون المدافعين عن الحقوق المدنية» متى سترضون؟ إننا لن نرضى أبدًا طالما أن الزنوج ضحية للرعب الذى لا يوصف من جراء قسوة الشرطة. إننا لن نرضى أبدًا طالما أن أجسادنا التى أرهقها السفر، لا يمكن أن تسكن النُزُل على الطرق السريعة أو الفنادق فى المدن. إننا لن نرضى أبدًا طالما أن حراك الزنوج هو فقط من معزل صغير إلى معزل أكبر. إننا لن نرضى أبدًا أن أطفالنا مجردون من ذواتهم ومسلوبون من كبريائهم بواسطة العلامات التى تقرر «للبيض

فقط». إننا لا يمكن أن نرضى طالما أن أى زنجى فى الميسيسيبى لا يمكن أن يدلى بصوته وأى زنجى فى نيويورك يعتقد بأنه لا يملك شيئًا يصوِّت من أجله. لا، لا، نحن لسنا راضين ولن نرضى حتى «تتدفق العدالة مثل المياه وينساب الحق مثل المجرى العظيم».

. . . وهو ما يكون حينما يصبح الخطاب موعظة؛ لأن هذه هى كلمات النبى عاموس «وليجر الحق كالمياه والبر كنهر دائم» (عاموس ٥ : ٢٤). وعندما يصل إلى أشهر فقرة، تكون العبارة التكرارية هى عبارة العنوان: «عندى حلم». ولكن لديه مفاجأة الواعظ فى النهاية. فمَن الحالم بالضبط؟

«أقول اليوم لكم يا أصدقائى، حتى ونحن نواجه صعوبات اليوم والغد، إننى ما يزال عندى حلم. وهوحلم يضرب بجذوره فى أعماق الحلم الأمريكى.

إن عندى حلمًا بأنه فى يوم ما ستنهض هذه الأمة وتعيش حسب عقيدتها الحقة: نحن نأخذ هذه الحقائق على أنها بديهيات، أن البشر جميعًا قد خلقوا سواء.

إن عندى حلمًا بأنه فى يوم ما على تلال چورچيا الحمراء، سيكون بوسع أبناء العبيد السابقين وأبناء ملاك العبيد السابقين أن يجلسوا سويًا على مائدة الأخوة.

إن عندى حلمًا بأنه فى يوم ما ستتحول ولاية الميسيسيبى، وهى ولاية ألهبتها حرارة العدالة، وأرهقتها حرارة الاضطهاد، إلى واحة للحرية والعدالة.

إن عندى حلمًا بأن أطفالى الأربعة الصغار سوف يعيشون يومًا ما فى وطن لا يُحكم فيه عليهم بلون بشرتهم ولكن بمضمون شخصيتهم. إن عندى حلمًا اليوم.

إن عندى حلمًا بأنه فى يوم ما فى آلاباما، التى تعج بالعنصريين الأقحاح، والتى يتفوه حاكمها بكلمات «الاعتراض»و«عدم الشرعية» يومًا ما هناك فى آلاباما سيكون الصبية والصبايا السود الصغار قادرين على أن يشبكوا أيديهم فى أيدى الصبية والصبايا البيض الصغار كإخوة وأخوات. إن عندى حلمًا اليوم.

إن عندى حلمًا بأنه ذات يوم سيتم إعلاء كل واد، وخفض كل تل وجبل؛

والأماكن الوعرة سوف تمهّد، والأماكن الملتوية ستصير مستقيمة، وسيتجلى مجد الرب، وسيراه كل البشر سويًا».

وهذه ليست رؤيا كنج وإنما هى رؤيا النبى إشعيا. وكان بوسع مستمعيه أن يتعرفوا عليها فى الحال، وهى مساهمة قيمة فى فهم الكيفية التى كانت تسمع بها كلماته أن تقدم السياق الروحى الأوسع. وهذا يجيب أيضًا على السؤال: من الذى يحلم؟ إنه كنج، بيد أنه يحلم حلم إشعيا، كما أن إشعيا يكرر كلمة الرب. إنه باختصار حلم الرب. ونص إشعيا بالكامل (٤٠: ١-٥):

«عزوا عزوا شعبى، يقول إلهكم. طيبوا قلب أورشليم ونادوها بأن جهادها قد كمل أن إثمها قد عُفى عنه، أنها قد قبلت من يد الرب ضعفين عن كل خطاياها.

صوت صارخ فى البرية: أعدوا طريق الرب. قوّموا فى القفر سبيلاً لإلهنا، كل وطاء يرتفع وكل جبل وأكمة ينخفض، ويصير المعوج مستقيمًا والعراقيب سهلاً. فيعلن مجد الرب ويراه كل بشر جميعًا لأن فم الرب تكلم».

إنه ليس فقط إعلانًا للعدالة الوشيكة. هذه الفقرة، مثل فقرات أخرى فى سفر إشعيا، تتطلع صوب عصر مسيحانى جديد. فالكلمات (كما عرف سامعوه) ترد مرات ومرات فى الكتاب المقدس، بواسطة يوحنا المعمدان، الذى يتنبأ بقدوم المسيح الوشيك ومطالبة الشعب بالاستعداد له بالتوبة:

«فى أيام رئيس الكهنة حنان وقيافا، كانت كلمة الله على يوحنا بن زكريا فى البرية. فجاء إلى جميع الكورة المحيطة بالأردن يكرز بمعمودية التوبة لمغفرة الخطايا. كما هو مكتوب فى سفر أقوال إشعياء النبى القائل: صوت صارخ فى البرية، أعدوا طريق الرب اصنعوا سُبُله مُستقيمة. كل واد يمتلئ وكل جبل وأكمة ينخفض وتصير المعوجات مستقيمة والشعاب طرقًا سهلة. ويبصر كل بشر خلاص الله» (لوقا ٣: ٢-٦).

ثم يظهر نبى ثالث من أنبياء الكتاب المقدس: دانيال. وعرض كيث ميللر للنص لا يحتاج إلى مزيد من التعليق:

«وباتباع التكرار لعبارة «إن عندى حلمًا» أثار «كنج» الفكرة الأخروية فى الكتاب المقدس بإعادة إنتاج تصوير ما قاله النبى دانيال «بهذا الإيمان سنكون قادرين على أن ننحت من جبل اليأس حجرًا للأمل». وإذ كان دانيال يفسر حلمًا شهيرًا للملك «نبوخذ نصر»، يصف حجرًا يسحق تمثالاً صنع من المعادن الثمينة، والحديد، والصلصال. وإذ نحته الرب من أحد الجبال، فإن الحجر يرمز إلى مملكة الرب المثالية التى تدمِّر كل الممالك الأرضية التافهة ويبقى هو للأبد. وعلى أية حال، فإنه فى خطبة كنج، يستخرج البشر الحجر من الجبل دون أن ينتظروا بسلبية أن يخلق الرب مملكة جديدة بنفسه خلقًا تامًا. وإذ مثلت بالصخرة من الجبل، فإن وصول مملكة دانيال المثالية يتصادف مع وصول مملكة إشعياء ذات الأودية المرفوعة والجبال المنخفضة. وقد عالج كنج بخبرة رموز الجبل من دانيال وإشعياء عندما ابتدع صورة الجماعة الكاملة» [وردت القصة فى الإصحاح الثانى من سفر دانيال].

وبعبارة أخرى، هذا هو الحلم القديم للنزعة الألفية فى البروتستانتية: رؤيا عالم كامل يحكم فيه المسيح على مدى ألف سنة. وبينما يوضح التنميط البروتستانتى مرة بعد مرة، فإن دور الشعب المختار هو إحضارها إلى الوجود. إنهم المولودن الذين سيجعلون المجىء الثانى للمسيح، بعملهم من أجل العدالة.

وإنها أمريكا، ما تزال هى الأرض الموعودة التى سوف يحدث فيها هذا؛ إذ إن عقيدة كنج فى الخلاص هى فى النهاية نفس العقيدة الأمريكية، شأنه فى ذلك شأن كل من سبقوه، سواء من السود أو البيض. وأية شكوك يمحوها ختامه لخطبته الرنانة، عندما يصير موضوع إشعياء عن الجبال التى تغيرت هيئتها هو الحلم الأمريكى ذاته، وهى صهر نبوءة فى العهد القديم مع النشيد الوطنى الأمريكى:

«سيكون هذا هو اليوم الذى ينشد فيه جميع أبناء الرب بمعنى جديد:

إن بلادى منك

أرض الحرية الحلوة

عنك أغنى

الأرض التى مات فيها آبائى

أرض فخر الحجاج

من كافة جوانب الجبال

دع أجراس الحرية تدق

ولهذا دع الحرية تدق أجراسها من قمم التلال المدهشة فى نيوها مبشير

دع أجراس الحرية تدق من جبال نيويورك العظيمة

دع أجراس الحرية تدق من جبال پنسلڤانيا المتعالية

دع أجراس الحرية تدق من جبال الروكى ذات القمم الثلجية فى كلورادو

دع أجراس الحرية تدق من منحدرات كاليفورنيا المنحنية

ولكن ليس هذا فقط : دع أجراس الحرية تدق من جبل الصخر فى چورچيا

دع أجراس الحرية تدق من جبل لوك أوت فى تنيسى

دع أجراس الحرية تدق من كل تل وكومة فى الميسيسيپى

من كافة جوانب الجبال، دع أجراس الحرية تدق

ثم يعود أخيراً إلى جذوره كواعظ أسود؛ لكى «يعلن سنة الرب المقبولة» ويلخص الألفية :

«وعندما يحدث هذا، حينما نسمح لأجراس الحرية أن تدق، حينما ندعوها تدق من كل قرية وكل محلة، من كل ولاية، ومن كل مدينة، سنكون قادرين على أن نسرع مجىء ذلك اليوم، الذى فيه كل أبناء الرب، من السود والبيض، من اليهود والأغيار، سيكونون قادرين على أن يشبكوا أيديهم وينشدوا فى كلمات الأغانى الدينية الزنجية القديمة : الحرية أخيراً! شكراً للرب العظيم، لقد تحررنا أخيراً».

لأن تلك كما كان يعرف كل مسيحى أسود سمعه حتمًا، كانت أغنية نهاية الزمان. وهكذا قدم مارتن لوثر كنج فى موعظته ليس فقط دعوة موجهة ونبيلة بالتصرف لتصحيح الأخطاء العنصرية؛ وإنما قدم «لاهوتًا لأمريكا» متجددًا ومكتملاً، وهو على اتساق مع تراث طويل من التبشير البروتستانتى المستمد من سفر الرؤيا، سواء أبيض أو أسود. فأمريكا السوداء يفترض أن تكون الأمة المخلّصة، «ضوء على الأمميين»؛ أما أمريكا البيضاء فهى الأمة التى تنال الخلاص. وخلاصها يبشر بزمن النهاية، أى بداية مملكة المسيح على الأرض. ولا بد أنها كانت تجميعًا لافتًا للنظر حتى وإن كانت هى الشىء الوحيد الذى فعله فى حياته.

وفى نظرية التنميط على أساس الكتاب المقدس، كان ثمة شعب ـ قرين للشعب الإسرائيلى فى العهد القديم ـ هو الشعب الأسود الذى كان مضطهَدًا، ومن ثم فإنهم بوصفهم شعبًا لا بد أن يتم تحريرهم (من ربقة العبودية فى مصر... إلخ) بمساعدة الرب ولكن بجهودهم الخاصة. وقدمت حركة الحقوق المدنية الأمريكية نموذجًا احتذاه أصحاب الحملات الأخرى، ممن رأوا تشابهات بينهم وبين الشعب الأسود وبين شكاواهم وشكاوى السود.

والتضامن والشعور بالقوة التى منحها مفهوم «الشعب» لنضال السود من أجل الحقوق المدنية كان يعتبر ساريًا وفعّالاً بالمثل بالنسبة للشواذ جنسيًا، والمعاقين، والمسنين، والنساء وهلم جرا؛ إذ كانت مشاعر العداء تجاه هذه الجماعة قرينة بالعداء الذى خضعت له الجماعة السوداء. وبدأ التصحيح السياسى باعتباره لغة معاداة العنصرية، وطُبق بالتشابه على أولئك الناس المتباينين الذين كانوا أيضًا يرون أنفسهم جماعات مناهضة للاضطهاد. ومن الناحية النظرية، كان مصدر الاضطهاد فى حالة الشواذ جنسيًا، والمعوقين، والنساء وما إلى ذلك، هو نفس المصدر بالنسبة للسود. كان المصدر هو مجموع البروتستانت الأنجلوسكسون البيض (WASPS) المحافظين الذين تجلى موقفهم بأقسى صورة فى الطبقة العاملة من الذكور البيض فى أعماق الجنوب، والذين كان أكثر رموزهم تطرفًا هو جماعة

الكوكلوكس كلان؛ لأنهم أيضا كانوا «شعبًا» بالمعنى الوارد فى الكتاب المقدس، على الرغم من أنهم كانوا يشكلون أغلبية.

وقد ربط مارتن لوثر كنج عدة مرات بين الحملة من أجل الحقوق المدنية الأمريكية وبين حركة مناهضة الاستعمار العالمية، والواقع أنه كانت هناك نقاط تشابه، إذ لم يكن لدى الناس السود فى أفريقيا حقوق متساوية مع حقوق البيض. ولم يصدق هذا على أى مكان أكثر منه فى الجزء الجنوبى من القارة. فبحلول الستينيات، كانت الأغلبية البيضاء فى جنوب أفريقيا - إذ لم يكن للسود حق التصويت - قد أقامت الدولة الوحيدة فى العالم القائمة على أسس عنصرية كاملة؛ حيث كان التمييز العنصرى يحظى بمباركة أعمق حتى من جنوب الولايات المتحدة فى ظل قوانين چيم كرو. **وقد أسس البيض فى جنوب أفريقيا أنفسهم على أساس قراءتهم الكالڤينية للكتاب المقدس، لا سيما المفهوم القائل بوجود «شعب مختار» أبيض يحتل، تحت ميثاق مقدس، «أرضًا موعودة»، مع اعتبار الأفريقيين الأصليين بمثابة الكنعانيين. ففى سفرهم الطويل فى ثلاثينيات القرن التاسع عشر، كانوا، مثل الإسرائيليين القدماء، هاربين من «الفرعون» (الذى يظهر فى هذه الدراما فى صورة الملكة ڤيكتوريا). كانت مثل هذه الاعتقادات أقرب إلى اللاهوت السياسى لعامة البروتستانت البيض الذى كان مارتن لوثر كنج يقاتله فى بلاده. وعلى الرغم من أن البوير لم يمارسوا الرق فى المصطلحات الأمريكية، فإنهم أيضًا كانوا يعتقدون أن «الكنعانيين» قد وضعهم الرب هناك؛ لكى يخضعوا للحكم، ولكى يتم تحويلهم إلى عمال وخدم.**

كانت أيديولوچية «الشعب المختار» لدى البيض فى جنوب أفريقيا، المستمدة من المذهب الكالڤينى للكنيسة الهولندية المُصْلَحة، هى التى شيدت أساس نظام الفصل العنصرى. ولكن من سخرية الأقدار أنه كان من داخل الشعب المختار الكالڤينى ودائرته المغلقة «Laager» (وهى كلمة تعنى أصلاً دائرة من العربات التى وضعت فى الشكل الدائرى بقصد توفير الحماية ليلاً) أن بدأ نظام الفصل العنصرى يتهاوى، وكان السبب لاهوتيًا، إذ لم يكن ممكنًا، فى ضوء نصوص مثل تلك التى

وردت فى سفر أعمال الرسل (١٠ : ٣٤ـ ٣٥) أن يتم استبعاد السود من اعتناق المسيحية إذا ما كانوا يسعون بإخلاص إلى اعتناقها «بقلب نقى» : «ففتح بطرس فاه وقال : بالحق أنا أجد أن الله لا يقبل الوجوه ، بل فى كل أمة الذى يتقيه ويصنع البر مقبول عنده» .

ولهذا سعت الكنيسة الهولندية المُصْلَحة فى جنوب أفريقيا زمنًا طويلاً لكى تقبل الأفريقيين ، و«الجنس المختلط ـ Cape Coloureds» ، وغيرهما من الجماعات غير البيضاء ، باعتبارهم مسيحيين بتأسيس كنائس تابعة لكل جنس على حدة يمكن أن تقبلهم فيها . بيد أن هذا التساهل نفسه بنى فى المذهب الكالفينى للبيض فى جنوب أفريقيا شذوذًا عميقًا . كيف يمكن أن يوجد «شعبان مختاران» أو أكثر فى نفس المكان؟ وقد عاد الباحثون المتخصصون فى الكتاب المقدس من البيض فى جنوب أفريقيا إلى النصوص الأصلية التى كانوا قد أقاموا على أساسها نظرية الفصل العنصرى ، ورأوا أن التفسيرات الأخرى ـ بما فى ذلك تلك التى أدت إلى الرفض القوى لنظام الفصل العنصرى من قبل كنيستهم الهولندية الإصلاحية الأم فى هولندا ـ ممكنة . وبينما كان المفهوم الشعبى ـ لا سيما فى مناطق العالم المتحدثة بالإنجليزية ـ هو أن الفصل العنصرى قد تقوض وانهار بسبب العقوبات الدولية ، ونضال ANC ، وبطولة نيلسون مانديلا وتضامن حركات الحقوق المدنية للسود والحركات المعادية للاستعمار ، فالحقيقة هى أن زعماء البيض فى جنوب أفريقيا كانوا بالفعل يفقدون الثقة فى نظام الفصل العنصرى باعتباره إرادة الرب . وعندما قدَّم مانديلا للزعامة البيضاء فى جنوب أفريقيا مخرجًا من الأزمة ، أخذوا به .

كان استخدام السود تحت ظروف أدنى من ظروف توظيف البيض ، وإنكار معظم حقوقهم السياسية ، قد بات من ملامح الاستعمار الأوروبى فى جميع أنحاء أفريقيا وآسيا ، وكان الموقف فى جنوب أفريقيا ، على الرغم من أنه كان متطرفًا ، لم يكن موقفًا فريدًا بأى حال من الأحوال . ولكن بخلاف المستعمرات ، كانت تلك البلاد مستقلة ، ومن ثم كانت معزولة ، ولم تكن قد مرت بما مر به بقية العالم ؛ إذ كان بقية العالم قد مر بأهوال قاسية ، هزت تفكيره لا سيما فيما يتعلق بالعلاقات

بين الشعوب والأجناس؛ إذ إن هزيمة «الجنس السائد» النازى فى الحرب العالمية الثانية قد جرّد إلى الأبد فكرة أن فرعًا واحدًا من الجنس البشرى يتفوق على الآخرين بالفطرة من مصداقيتها. فقد حُوربت قوات هتلر من قبل البريطانيين والأمريكيين؛ بيد أن أسوأ هزائمها كانت على أيدى الجيش الأحمر، الذى يكاد يكون كله مؤلفًا من السلاف، الذين هم بحسب النظرية العنصرية النازية، فى مرتبة أدنى كثيرًا من الجنس الآرى وكان ينبغى أن يُهزموا بسهولة. وفى الأيديولوچية الفاشية كانت روح القتال أحد المؤشرات الرئيسية على القوة العنصرية. وفى الوقت نفسه شهد الغرب المنطق الجحيمى للتفوق العنصرى عندما ارتد فى صورة الرعب مما تم اكتشافه داخل معسكرات التجميع النازية عندما انتهت الحرب. ومن المستحيل أن نفهم الصدمة الناجمة عن إدراك أن الألمان، الذين كانوا ذات مرة من أكثر شعوب العالم تمدينًا، قد تمت قيادتهم لفعل هذا، والواقع أن الصدمة لم تخف بعد خمسين سنة. وقد قدّم النازيون نسخة أخرى من سيناريو شعب الله المختار، على الرغم من أنها ليست نسخة مسيحية. فقد كانوا يعتقدون أنهم مختارون - بواسطة التاريخ، وبواسطة «ضوء العلم المضلل»، والقدر، والمصير وآلهة الراين القدماء؛ فليس من الواضح مَن مِن هؤلاء اختارهم - لكى يحكموا العالم.

كان هناك قدر قليل من التوسع فى الإمبراطورية بعد الحرب العالمية الأولى. ولكن كان ثمة قدر قليل من فهم أن أسس الإمبراطورية قد أرسيت على الأخطاء التى تم ارتكابها بحق شعوب ومجتمعات أخرى. وقد عارض ونستون تشرشل، بوصفه زعيمًا للمعارضة، استقلال الهند سنة ١٩٤٧م. ولم يلحق به أى ضرر من جراء هذا: فقد فاز فى الانتخابات العامة سنة ١٩٥١م. كما أن حكومة آتلى العمالية ١٩٤٥ - ١٩٥١م، على الرغم من نزعتها الاشتراكية، لم تكن هى الأخرى معادية للاستعمار من حيث المبدأ. ويكتب كوريللى بارنيت، فى «The Verdict of Peace»:

«لم تكن حكومة العمال وحدها هى التى تعتقد، فى الفترة التى سادتها نشوة النصر فيما بعد الحرب، أن بريطانيا بوصفها قوة يمكن أن يكون لها مستقبل مثلما كان لها ماض. كذلك كان حزب المحافظين فى المعارضة يعتقد هذا، وكذلك

كان يعتقد الشعب البريطانى ؛ إذ إن القيود العقلية التى فرضها التاريخ الإمبراطورى كانت تكبلهم جميعًا . وبالرغم من أن حكومة العمال تخلت أخيراً عن الهند سنة ١٩٤٧م ، فإنها أبقت بإصرار ، ودونما تمييز ، على كل ما بقى من الالتزامات العسكرية والبحرية التقليدية لبريطانيا فى البحر المتوسط وفى الشرق الأوسط وفى الشرق الأقصى - على اعتبار أن هذه كانت الركائز الجوهرية (على حد تعبير بيڤن عن الشرق الأوسط سنة ١٩٤٨م) لوضع بريطانيا كقوة عظمى [كان إرنست بيڤن فى ذلك الوقت سكرتير حزب العمل للسياسة الخارجية] .

وثمة نسخة ناعمة عطوفة من نظرية الشعب المختار - وهى أن قدر انجلترا أن تلقى «ضوءاً على الأمميين» ، وأن هذا الضياء كان أفضل ما يكون إذا عُمل فى الحال بدلاً من أن يُعمل على المدى الطويل - ما تزال سائدة بشكل عام . فقد كانت ما تزال نظرية حزب الهويج (المحافظين) . وقد افترضت ، مهما كان الذى حدث مؤخراً فى ألمانيا ، أن الاتجاه الطبيعى للحضارة الإنجليزية كان صوب التقدم . وبالتدريج ، بوصة فبوصة ، كانت المؤسسات بريطانية الطابع قد تأسست وبُنيت فى المستعمرات الأفريقية والآسيوية التى كانت ما تزال خاضعة لحكم لندن - مؤسسات مثل المدارس والكليات ، والمحاكم والنظم القانونية ، والمجالس المحلية (وبعضها له قوة نيابية تشريعية ، وبعضها استشارى فقط) ، وفروع محلية للكنيسة المسيحية البريطانية الرئيسية ، وكانت اللغة الإنجليزية لها الأفضلية فى التعليم على اللغات المحلية .

والحقيقة أن نظرية الشعب المختار فى الاستعمار البريطانى ، التى ترجع مباشرة إلى زمن ويلبرفورس عند نهاية القرن الثامن عشر ، كانت تحتوى داخلها على بذور دمارها ؛ إذ إنه آجلاً أم عاجلاً كان لا بد أن يُرى «النور على الأمميين» وأن تتم الاستجابة له ، وكان لا بد للأمة المخلّصة أن تقوم بفعل الخلاص . وبينما كانت فوائد الحضارة البريطانية تنتشر ويتم استيعابها بين المستعمرات ، كان لا بد من أن يكون هناك طلب للحقوق السياسية نتيجة لهذا . وكانت دروس ١٧٧٦م واضحة بما فيه الكفاية ، حتى ولو أخفق الأمريكيون فى إبرازها (وهو ما لم يفعلوه) .

وجاءت أهم الدروس من هذا النوع خلال ما يسمى«أزمة السويس» (التى كانت حربًا فى الحقيقة)؛ ذلك أن بريطانيا، بمساعدة فرنسية وإسرائيلية، قد قررت إعادة احتلال قناة السويس التى كان الزعيم الوطنى المصرى جمال عبد الناصر قد أممها (أى انتزعها من الملاك الأجانب) سنة ١٩٥٦م. وكانت هناك فى الأمة كلمات ونستون تشرشل فى فترة سابقة من الخمسينيات «شعور متنام بالحاجة إلى إعادة وضع بريطانيا فى مكانها الصحيح، الذى يعتمل فى قلوب الناس بعيدًا عن صفوف أية منظمة سياسية»؛ إذ إن انجلترا التى كانت قد شعرت بالثقة الوطنية فى النفس تعود إلى المزاج الوطنى فى زمن التتويج سنة ١٩٥٣م، لم تكن لتترك حاكمًا أجنبيًا تافهًا ينتصر عليها، حسب الوصف الذى أطلقه أنتونى إيدن خليفة تشرشل فى رئاسة الوزارة على ناصر.

ومن الناحية العسكرية كان الأمر نوعًا قذرًا من النجاح، ولكن أمريكا عارضت بقوة. وربما كان جوهر الإحساس الأمريكى شبيهًا بالشعور الليبرالى الذى عارض المشروع فى بريطانيا: أن هذه كانت طريقة عفا عليها الزمن لا ينبغى لأية أمة أن تتصرف بها، وكانت المؤسسة البريطانية ما تزال على عقليتها الاستعمارية. بيد أن أمريكا، بسبب تاريخها، وعلى الرغم من تجاربها الخاصة فى بناء الإمبراطورية، كانت لديها عداوة عميقة تجاه الاستعمار فى صيغته الأوروبية القياسية وتعاطف غريزى تجاه أى شعب يحاول التخلص منه.

والواقع أن بعض بديهيات الحكومة البريطانية كانت إمبريالية تمامًا. فعلى سبيل الرد على التأميم الذى قام به ناصر، بذلت الحكومتان البريطانية والفرنسية ما فى جهدهما لإيقاف المرور عبر القناة بسحب المرشدين البريطانيين والفرنسيين، والذين كان لا بد لكل سفينة أن يكون بها واحد منهم. ويعلق كورليلى بارنت: «كان اعتقادهم المتغطرس بأن هذا سوف يُظهر للعالم أن المصريين المتخلفين لن يمكنهم إدارة الشركة التى أمموها. وكان من دواعى الغم والكدر بالنسبة للفرنسيين والبريطانيين أن قام المصريون ببساطة بتوظيف مرشدين من جنسيات أخرى؛ لكى يحلوا محل مرشديهم، وظلت البواخر التجارية وناقلات البترول تبحر كالمعتاد».

هكذا كان القرار قد اتخذ للاستيلاء على القناة مجدداً بالقوة فى خدعة مركبة للتدخل دفاعًا عن الأملاك الدولية ضد الإسرائيليين (الذين كان البريطانيون والفرنسيون يشجعونهم سرّا لمهاجمة مصر؛ لكى تكون هناك ذريعة للعمل العسكرى)، وبمثل هذه المناورة افترضت بريطانيا أن بوسعها أن تتصرف مستقلة عن أمريكا، بيد أنها لم تستطع؛ إذ كان أحد آثار الحرب العالمية هو تحويل جزء كبير من احتياطى النقد البريطانى إلى ديون مملوكة للولايات المتحدة، وحتى بعد عشر سنوات، كان الاقتصاد البريطانى ما يزال بحاجة إلى دعم ومساندة. ولم يكن ممكنًا تصحيح تدهور الجنيه الاسترلينى فى أسواق النقد العالمية بجهد بريطانيا وحدها، كما أنها لم تكن تملك الاحتياطيات اللازمة لذلك. واعتمدت على المساعدة الأمريكية، والتى لم تكن وشيكة فى تلك المناسبة، وعلى نحو ما أوضح الرئيس دوايت أيزنهاور بطريقة هشة: «ما لم يكن هناك وقف لإطلاق النار، لن تكون هناك قروض» (كان يشير إلى طلب بريطانى بالسحب بضمان ميزانيتها العالمية المالية لكى يدعم أسواق العملة، وهو طلب اعترضت عليه أمريكا). وقد أعلن أسبابه فى خطاب مذاع أوضح فيه قناعته بأن ما وراء هذا النزاع هو النزعة الاستعمارية على الطراز القديم - وهى نزعة بريطانية فى المحل الأول. وقد اشتكى من أن الولايات المتحدة لم تُستشر حول النية بشن هجوم مسلح على مصر، وهو أمر لم يمثل صدمة كما قد يبدو، إذا ما أخذنا فى الحسبان أن الولايات المتحدة قد شنت الحرب على كوريا سنة ١٩٥٠م، دون أن تتشاور مع بريطانيا. وواصل حديثه:

«ومثلما هو حق واضح لأىّ من هذه الأمم فى اتخاذ مثل هذه القرارات والتصرفات، فمن حقنا كذلك - إذا ما كان تقديرنا على ذلك علينا - ألا نوافق. إننا نعتقد أن هذه الأعمال قد جرت خطأ؛ لأننا لا نقبل استخدام القوة كأداة حكيمة أو مناسبة لإقرارات النزاعات الدولية... إن التصرف الذى تم لا يمكن أن يتوافق مع مبادئ وأغراض الأمم المتحدة التى وافقنا جميعًا عليها. وفوق هذا، فإننا مجبرون على الشك فى أن اللجوء إلى القوة والحرب سوف يخدم لفترة طويلة المصالح الدائمة للدول المهاجمة».

كان الرئيس أيزنهاور رجلاً براجماتيًا، بيد أن أزمة السويس كشفت أنه كان مقتنعًا بعمق بالدور الأخلاقي الفريد لأمريكا في شئون العالم؛ إذ إن حليفتها القديمة في الحرب العالمية الثانية التي حاربت إلى جانبها على أساس المساواة والتي قاد جنودها بنفسه في غزو نورماندي، لم تعد ندًا ولكنها الآن شريك أصغر. وكانت لديه الوسيلة لفرض إرادته ـ والآن معه الرب إلى جانبه. وفي ذلك الصيف كان قد أعلن «نحن نثق في الرب» لتكون الشعار الوطني للولايات المتحدة.

وفي بريطانيا سنة ١٩٥٦م لم تكن كلمة «الاستعمار» كلمة قذرة. ولكن هجران أمريكا لأقرب حليف (كما بدا في لندن) كان ضربة قاسية للهيبة القومية. ويبدو أن الحقيقة هي أن أيزنهاور ووزارة الخارجية في واشنطن قد أصبحا متضايقين بشكل متزايد من التظاهر البريطاني بالندية مع أمريكا، وهو ما كان يمثل ببساطة عقبة في سبيل حرية أمريكا في التصرف «من أجل حماية حرية العالم بأسره» (بحسب صياغة وزارة الخارجية).

وحدث أثناء تلك الفترة أن تحول التفكير البريطاني في أمريكا من «الندية» مع أمريكا كقوة عالمية أخرى، إلى «العلاقة الخاصة» بين قوة صغرى وقوة عظمى. وبعد أزمة في العلاقة سنة ١٩٥٦م وما تلاها من استقالة إيدن رئيس الوزراء، كان على خليفته، هارولد ماكميلان، أن يحاول إصلاح الأمور. وكانت استراتيجية بسيطة: أن يتفق مع أمريكا على أن أيام الاستعمار قد ولّت إلى غير رجعة.

وكانت مستعمرتان بريطانيتان قد حصلتا على الاستقلال بالفعل ـ هما غانا والملايو (ماليزيا) في الشرق الأقصى ـ وكانت نيجيريا على الطريق، ولكن كانت هناك مشكلات خطيرة في أماكن أخرى، ليس أقلها ما حدث حينما تصادمت مصالح المستوطنين البيض مع المطالب النضالية المتزايدة للسياسيين الوطنيين الأفريقيين في وسط وجنوب أفريقيا. وفي سنة ١٩٥٩م قدم الجنرال ديجول حق تقرير المصير للجزائريين؛ مما جلب المخاطرة بنشوب حرب أهلية في أراضي فرنسا ذاتها وفي ممتلكاتها الأفريقية.

ولهذا كانت هذه الأحداث إنذاراً للإمبراطورية البريطانية. وذهب ماكميلان في

جولة إلى أفريقيا فى بداية سنة ١٩٦٠م، وهى التى انتهت بخطابه الشهير عن «رياح التغيير» فى برلمان جنوب أفريقيا. وكانت جولته فرصة ممتازة لمراقبة المدى الذى ذهب إليه البريطانيون الذين عينوا أنفسهم فى مهمة لتمدين أفريقيا، منذ وجود مفهومها فى أيام وليام ويلبرفورس وبعد ذلك فى أيام ديڤيد ليڤينجستون. وكانت دعوة ليڤينجستون المتطوعين البيض للذهاب إلى أفريقيا وتجديد اقتصادها على حسب الخطوط الحديثة ـ وكان فى ذهنه أن ذلك هو الرد الحقيقى الوحيد على الرق ـ قد نتج عنها جمهرة كبيرة من المغتربين فى معظم أنحاء المستعمرات فى وسط وجنوب أفريقيا. وكانت بعض البلاد قد أحرزت تقدمًا فى بناء طبقة سياسية، تضم جيلاً جديداً من الموظفين المدنيين والمحامين السود، وكانت بعض البلاد الأخرى متخلفة عن ذلك كثيراً. وقد طال الفقر عدداً قليلاً من البيض فى هذه العملية، وكانت هناك ثروة ورفاهية فى انتظار من يتملكها فى المستعمرات.

وفى كل مكان رفرف عليه علم الاتحاد، كانت الكنائس البريطانية قد وزعت بعثاتها التبشيرية التى صارت مع الوقت أساس المدارس والكليات والمستشفيات. وعادة ما لم تكن كنيسة انجلترا حاضرة بذاتها، ولكن من خلال واحدة أو الأخرى من الهيئتين التبشيريتين الرئيسيتين، الجمعية الإرسالية الكنسية Church Missionory Society (CMS) التى كانت كنيسة سُفلى (أى إنجيلية)، والجمعية المتحدة لنشر الإنجيل (USPG) والتى كانت هى الكنيسة العليا (أى الأنجلوكاثوليكية)، وكان مقر كل منهما الرئيسى فى انجلترا. بيد أنهما لم تتنافسا بصفة عامة. وبدلاً من أن يكون لديهم نوعيات مختلفة لعضوية الهيئة الكنسية جنبًا إلى جنب كما هو حادث فى الوطن الأم، تطورت الكنيسة الأنجليكانية فى كل جزء من القارة تحت راية واحدة فقط من هاتين الهيئتين. فالكنيسة الأنجليكانية فى كينيا، مثلاً، صارت تقريبًا كنيسة إنجيلية (أى پروتستانتية) متسقة؛ لأنها كانت تحت إرسالية (CMS)، على حين كانت جنوب أفريقيا قد خضعت لإرسالية (USPG)، ولهذا كانت الإنجيلية هناك كنيسة عليا (أى أنجلو كاثوليكية). ويفسر هذا جزئيًا السبب فى أن نضال السود من أجل الحرية فى جنوب أفريقيا، على

الرغم من أنه كان يلقى دعمًا قويًا من الكنائس الناطقة بالإنجليزية، لم يكن مصحوبًا بالتنميط على أساس الكتاب المقدس حول «موسى يقود الشعب المختار للخروج من نير عبودية فرعون» (وكان يمكن أن يكون موسى هو نيلسون مانديلا، على ما يرجح)، كما سيكون عليه الحال بلا شك إذا ما كان الوجود المسيحى السائد أكثر پروتستانتية.

وفى معظم المستعمرات كانت هناك أيضًا كنيسة اسكتلندا الأصغر والبعثات الميثودية والمعمودية، وفى كل الكنائس وجد الأنجليكانيون وغيرهم من تنويعات البروتستانت أنفسهم أقل عددًا من الكاثوليك الرومان، الذين تركزت جهودهم الرئيسية على التعليم. ولذلك كانت الرؤية الباكرة للإرساليات الرائدة قد تحققت إلى درجة كبيرة عندما كانت أفريقيا تدريجيًا تصطبغ بالصبغة الغربية والمسيحية. وفى معظم الحالات كانت الحماية التى وفرتها السلطة الاستعمارية الأوروپية عملاً مهمًا، وفى الوقت نفسه، على نحو ما ظهر أنه النموذج العالمى مع الاستعمار الأوروپى، كان لا بد من أن تكون مثالية المهندسين والمحامين والأطباء ورجال الكنيسة البيض تعويضًا عن أنانية وغطرسة بعض المستوطنين البيض والمزارعين البيض واستغلال الموارد المحلية لصالح المطامع التعدينية الغربية. وكانت المواقف المعبرة عن التفوق العنصرى واسعة الانتشار، التى اختلطت بالتعالى الإنجليزى (والذى تقوى، دون شك، عندما كان أبناء الأسر البيضاء الغنية يرسلون إلى المدارس العامة الإنجليزية لاستكمال تعليمهم).

وخلال رحلة قام ماكميلان إلى نيچيريا، فى بداية جولته، قام بإجراء محادثات مع السير چيمس روبرتسون، الحاكم العام البريطانى، وهى محادثات غالبًا ما كانت تتم الإشارة إليها فى فترة لاحقة، وهى دالة جدًا، سواء عن حالة أفريقيا فى ذلك الوقت، أو من حيث ما كشفته عن المواقف الأبوية والتسلطية للطبقة الحاكمة الإنجليزية. وعلى حد تعبيره بكلماته:

بعد حضور اجتماع ما لما يسمى الوزارة أو المجلس، قلت: «هل هؤلاء الناس يصلحون للحكم الذاتى؟» وقال: «لا، طبعًا»، وقلت: «متى سيكونون جاهزين؟»

وقال: «بعد عشرين سنة، أو خمس وعشرين سنة»، فقلت حينئذ: «ماذا توصينى بعمله؟» قال: «أوصيك أن تعطيهم الحكم فى الحال».

وتعبيرات مثل «ما يسمى» و«هؤلاء الناس» و«يصلحون لـ» وصيغة النفى المؤكدة «لا، طبعًا، لا يصلحون»، كلها مؤشر على التفوق الإنجليزى وازدراء الأفريقيين المحليين الذى كان علامة دافعة لأسلوب ماكميلان، وربما لأسلوب الحاكم العام أيضًا، وهى أيضًا دليل على استمرار النزعة التسلطية الاستعمارية، أى أن البيض كانوا هم البالغين الناضجين، أما الأفريقيون فهم الأطفال. ومع هذا فإنها تكشف عن أن الإحساس بالغرض الأخلاقى وراء الاستعمار البريطانى كان ما يزال حيًا بدرجة كبيرة للغاية. وقد قال روبرتسون إن «على البريطانيين مسئوليات»، وهو يفسر إجابته غير المتوقعة بالقول بأنه إذا تأجل الحكم الذاتى، فإن الزعماء الأفارقة سوف يمضون العقد أو العقدين التاليين وهم يحاربون من أجل الاستقلال، وليس فى تعلم فن الحكم، و«سيكون علىَّ أن أضعهم جميعًا فى السجن» وهو ما تصور أنه كان سيؤدى إلى عدم تحقيق أى خير لهم. ولكن إسداء الخير للأفارقة كان هو السبب الرئيسى لوجود البريطانيين هناك.

والمهمة الضمنية للبريطانيين لتمدين العالم والتى كانت قائمة عند بداية الإمبراطورية البريطانية الثانية كانت ما تزال تؤخذ أمرًا مسلمًا عند نهاية هذه الإمبراطورية. وكانت تلك مهمة أمر بها الرب، وهو ما كان عدد قليل من جيل ماكميلان يشك فيه.

وفى جنوب أفريقيا قابل مهمة مختلفة جدًا، أمر بها الرب، وأخبره بها رئيس الوزراء فيرويرد. فبالنسبة له، وحسبما لاحظ ماكميلان فيما بعد، كان «الفصل العنصرى أكثر من فلسفة سياسية، لقد كان ديانة، ديانة تقوم على أساس العهد القديم أكثر من العهد الجديد... وكان يمتلك كل قوة الإقناع التى يتمتع بها الزعماء الكالفينيون الكبار فى كنيستنا الاسكتلندية».

كان قلب حديثه هو النتيجة الختامية التى توصل إليها، والتى قال إنها كانت قائمة على أساس تجربته فى جولته، ولكن لا بد أنها كانت فى ذهنه عندما انطلق

فى هذه الجولة، وهى أن «رياح التغيير تهب فى أرجاء هذه القارة، وسواء أعجبنا هذا أم لا، فإن هذا النمو فى الوعى القومى حقيقة سياسية. يجب علينا جميعًا أن نتقبلها كحقيقة، ولا بد أن تضعها سياساتنا الوطنية فى حسابنا». وكانت رسالته إلى جنوب أفريقيا هى أنه بينما كانت الحضارة الإنجليزية، مثل حضارتهم، قائمة على أساس المسيحية «فإن ذلك ينبغى فى رأينا أن يتضمن الفرصة لأن يكون لنا نصيب متزايد فى السلطة السياسية والمسئولية السياسية، مجتمع تكون فيه الجدارة الفردية، والجدارة الفردية وحدها، هى المعيار لتقدم أى رجل، سواء كان سياسيًا أو اقتصاديًا...».

ولهذا مضت بريطانيا بسياسة منتظمة فى تخليص نفسها سلميًا من مستعمراتها فى أفريقيا، ولكن مع التخلى فقط عن تلك المستعمرات التى لا تخدم غرضًا استراتيجيًا فى غيرها من الأماكن. وكان الاختلاف الوحيد فى الممارسة هو اضطرارها إلى الخروج من مواقع مفيدة، مثل قبرص وعدن، بالقوة. ولكن خطبة «رياح التغيير» التى ألقاها ماكميلان سنة ١٩٦٠م كانت هى اللحظة الحاسمة التى عندها تخلى البريطانيون عن فكرة الإمبراطورية، وبدلاً من ذلك تحولوا إلى تطوير فكرة الارتباط الطوعى للدول المستقلة فى الكومونولث (الكومونولث البريطانى فى البداية)، ولكن لم تلبث الصفة أن أسقطت.

وقد تسارعت رحلته تجاه هذا الوضع ؛ بسبب حوادث مثل ما يسمى «مذبحة الهولا» سنة ١٩٥٩م، على اسم معسكر اعتقال فى كينيا لجماعة ماو ـ ماو الإرهابية. فبعد حادث شغب تم ضرب أحد عشر منهم حتى الموت. وكان رد فعل الإدارة الاستعمارية البيضاء مشابهًا إلى حد كبير لرد فعل البريطانيين فى الهند بعد «مذبحة أرميستار» سنة ١٩١٩م، مع تظاهر يتسم بالتحدى بأنه لم يحدث شىء ذو بال. ومع هذا فإنه أدى إلى انشقاق الوزارة البريطانية فى سنة الانتخابات، وهو ما كان يمكن أن يكون تحولاً خطيراً فى الأحداث بالنسبة لماكميلان. ولكن بينما كان الرأى البريطانى فى بريطانيا غاضبًا، فإن العامة فى غالبهم لم يكونوا على هذا القدر من الاستياء. فقد كان الرأى العام فى بريطانيا عنصريًا بشكل صريح، وكان ثمة «حاجز

لونى» يتم ممارسته على نطاق واسع فى الإسكان وفى التوظيف. وكانت لافتات «لا سود ولا أيرلنديين» لافتات شائعة الانتشار فى مداخل المنازل العامة وفى كل مكان غيرها.

وإذ لم يكن ماكميلان يريد أن يزعج الشعور البريطانى العام بالرضى عن النفس، فقد أبدى ملاحظة شهيرة «أنه لم يحدث أبداً أن كانت الأمور عندهم طيبة بهذا القدر». وصوّت البريطانيون للحفاظ على الأمور بهذه الطريقة، وقد شهدت هذه السنة أيضًا أعلى مستوى من الحضور فى الصلاة الأسبوعية بكنيسة انجلترا منذ نهاية الحرب، فما كان خيراً بالنسبة للجسد الوطنى كان واضحًا أنه كان خيراً أيضًا للروح الوطنية.

وفى الفترة ما بين التتويج فى سنة ١٩٥٣م وقول ماكميلان: «لم يحدث أبداً أن كانت الأمور عندهم بهذا القدر»، فى انتخابات سنة ١٩٥٩م كان المزاج الدينى الوطنى - على الأقل - معجبًا بنفسه. إذ لم يكن مسموحًا سوى للقليل بأن يتحدى الفروض فى انجلترا الأنجليكانية والتى كان التتويج نفسه قد أوضحها، حسبما ظهر من حادث طريف وقع سنة ١٩٥٥م؛ إذ إن «ماجريت نايت»، وهى أخصائية علم نفس من جامعة أبردين، طُلب منها أن تقدم حديثين إذاعيين تحت عنوان عام هو «الأخلاق بدون الدين»، وأرادت أن تعبّر عن عدم موافقتها على منشور وزعته وزارة التعليم بأن «السياق الطبيعى» للتعليم الأخلاقى للأطفال هو فى مجرى التعاليم الدينية، وأن تقدم مشورتها للوالدين غير المؤمنين حول كيفية غرس المعايير الأخلاقية فى الأطفال خارج مثل هذا الإطار. وقد وصفت فيما بعد المشكلة التى يواجهها مثل هذين الوالدين، اللذين يُحيط بهما «التلقين المنظم للدين» فى المدارس و وسائل الإعلام الجماهيرية:

«إن الدعاية بالغة القوة لم تجعل منا أمة من المؤمنين، وإنما خلقت روادع قوية للتعبير عن عدم الإيمان. وفى بعض الحالات يكون التهديد ماليّا؛ فالمدرس، مثلاً، الذى يجاهر باللا أدرية يجد أن فرصه فى الترقية مهددة. ولكن الأكثر حذقًا من الرادع المالى هو تأثير الاقتراح الجماهيرى - هو الشعور الذى يُزرع بشكل

متواصل بأن «عدم القدرة على الإيمان» هو حالة تدعو للأسف ومحرجة قليلاً، ومن الأفضل عدم الإشارة إليها. وهكذا يشعر كثير من الشكاكين الأمناء بأنهم يخجلون ويتسترون على شكوكهم، وفى جميع أنحاء البلاد يخلق الآباء المشوشون والقلقون صراعات مماثلة للجيل التالى بتعليم أطفالهم مذاهب لا يومنون هم أنفسهم بها».

بهذه الروح أدلت بحديثيها، وحدثت ضجة وطنية هائلة. وكما يحدث غالبًا عندما تحدث الحالة التى اصطلح على تسميتها «الذعر الأخلاقى» فى وسائل الإعلام وفى الرأى العام، بدأ الأمر ببطء. ففى البداية كان هناك تقرير قصير وموضوعى فى إحدى الصحف «News Chronicle»، ثم بدأت الأمور فى التورم. وقال العنوان الرئيسى لجريدة «Daily Express»: امرأة متخصصة فى علم النفس تشن هجومًا واضحًا على تعليم الدين للأطفال، وجمعت جريدة «Daily Telegraph» تقريرًا وصف حديثها بأنه «كتلة كبيرة من الدعاية الإلحادية»، ودعت إلى منع حديثها من الإذاعة ثانية. ثم نشرت جريدة «Sunday Graphic» عملية اغتيال - فى الصفحة الأولى - ذات طبيعة عنيفة خارقة للعادة. فتحت عنوان رئيسى بالصفحة الأولى يعلو صورتها التى كتب فوقها: «السيدة نايت غير المقدسة The Unholy Mrs. Kinght» أعلنت الصحيفة:

«لا تتركوا هذه المرأة تخدعكم. إنها تبدو - أليس كذلك - تمامًا مثل الزوجات فى البيوت؛ هادئة، مريحة، غير مؤذية. ولكن السيدة مارجريت نايت تمثل خطرًا. إنها امرأة خطيرة، فلا تخطئوا بشأنها... لقد سمحت الإذاعة البريطانية (BBC) المضللة لواحدة متعصبة أن تصخب على موجات الإذاعة بحيث تضرب المسيحية بموس حلاقة وسلسلة دراجة [كما يفعل البلطجية فى الحارات]. دعونا نكف عن الاستماع إلى المزيد من كلامها الفارغ وهرائها. ومن المقرر أن تدلى بحديث يوم الأربعاء القادم. ويجب أن تفرغه الإذاعة فى الحوض.

ولا يمكن إنكار أن السيدة نايت استخدمت ذريعة الحديث عن التعليم الأخلاقى؛ لكى تشن هجومًا على المعتقدات المسيحية الأساسية، وهو ما فعلته

فى مصطلحات لا يمكن التصالح معها. وإذا كانت تتعامل مع الشكاكين، فقد بدا أن هدفها هو أن تحولهم إلى ملحدين مؤكدين، ولكن الأمر كان أيضًا فى توقيت غريب، دعك من القول إنه توقيت أحمق للجدل، فلكى تعلم طفلاً أن الأخلاق تعتمد على المسيحية يولد خطرًا أنه ربما يرفض المسيحية من أجل الشيوعية، كما قالت فى حديثها. «وربما يقرر كذلك أن هذا كله كان مجرد ثرثرة فارغة مثل كلام الزوجات المسنات، وهو الآن لا يعرف أين هو. وفى هذه المرحلة يمكن أن يكون عرضة للدعاية للشيوعية بأكبر درجة... وبدلاً من أن يكون هذا حماية ضد الشيوعية، يمكن أن يساعد ربط الأخلاق بالدين على أن يسوق الناس إلى أحضانها».

وفى البداية جاء رد فعل الكنيسة على منوال الصحافة، وكان ساخطًا بنفس القدر، ولم يكن هناك من هو أكثر سخطًا من كبير أساقفة كانتربورى الدكتور جيوفرى فيشر. ولكن حسبما اعترفت هى نفسها فيما بعد، بدأت فضيلة التسامح الإنجليزية القديمة تظهر على السطح. وكان واحدًا من أكثر التعليقات لصالحها جاء من جريدة «Church Of England News Paper» البطل الجسور للإنجيلية الأنجليكانية:

«إذا كانت العقيدة المسيحية لا تستطيع الإجابة على شخص مثل السيدة نايت بالإساءة الشخصية ولا تستطيع أن تجد إجابة مفحمة، فإنها تستحق الفشل وسوف تختفى فى الحقيقة، واقتراح أن الإذاعة البريطانية (BBC) أخطأت فى السماح للسيدة نايت بالإذاعة يستخدم فقط بأيدى نقاد المسيحية بما يعنى ضمنًا أن الكنيسة منفعة خاصة لها قوة الرقابة... وأولئك الذى يشاطرون السيدة نايت شكوكها بشأن المسيحية ربما يفوقون فى عددهم أولئك الذين لا تساورهم الشكوك فى بريطانيا فى الوقت الحالى، ومن بينهم عدد كبير من مواطنينا الذين يتمتعون بقدر عالٍ من الاحترام والمسئولية».

والرسالة المهيمنة من العدد الكبير من الخطابات الموافقة التى تلقتها كان مؤداها أنها قد أدخلت هواء جديدًا فى الثقافة الوطنية لأول مرة، وبشكل أساسى

قال الناس إنهم شعروا بأنهم تحرروا، وكان بعضهم منتشيًا بالفرح. وثمة إشارة أخرى إلى المستقبل جاءت من خطابات المدرسين، لا سيما الرؤساء الذين كان عليهم تنظيم اجتماعات دينية وأولئك الذين كان عليهم تدريس التعاليم الدينية (كما كان مطلوبًا من المدارس أن تفعل بحكم القانون) سواء كانوا يؤمنون بهذا أم لا: وكان الدين فى خمسينيات القرن العشرين، ذروة فترة ما بعد الحرب لـ «المسيحية الرسمية» فى انجلترا، يتضمن أيضًا بشكل واضح بذور دماره. وربما كان إدراك مدى هشاشة الدين هو الذى زاد من الهيستيريا من جانب الصحافة. ولكن الكنيسة، مثل الملكية، كانت حتى ذلك الحين قادرة على أن تعتمد على مناخ من التبجيل غير الناقد، وكان نخسها بالنقد الصريح يعنى كسر أحد المحرمات الوطنية.

وسرعان ما تحول الانتباه إلى خطط زواج الأميرة مارجريت، التى كانت قد سببت لأختها الملكة، بل وبدرجة أكبر لكبير أساقفة كانتربورى، نذيرًا عنيفًا بالتهديد بالزواج من رجل مُطلَّق، الكابتن بيتر تاونسند. ولم يكلمها كبير الأساقفة فى العدول عن ذلك فقط، بل إنه أيضًا رتب لاجتماع الكنيسة، ثم لهيئة كنيسة انجلترا النظامية؛ لكى يمرر مرسوم استدعاء سنة ١٩٥٧م يحرّم زواج المطلّقين فى الكنيسة. وقد أعاد هذا تأكيد قرارات سابقة - خاصة قرار الكنيسة الذى تم تمريره بعد تنازل إدوارد الثامن سنة ١٩٣٦م - بإعلان أن: «فى سبيل الحفاظ على مبدأ الالتزام مدى الحياة الذى يدخل ضمن كل زواج عقد بصورة مشروعة وتم التعبير عنه فى أوضح عبارة فى طقوس الزواج الكنسية، فإن الكنيسة لا يجب أن تسمح باستخدام تلك الخدمة الكنسية فى حالة أى شخص كان له شريك فى الزواج ما يزال على قيد الحياة». ولم يكن هناك شك فى أن كبير الأساقفة فيشر كان يريد أن يقطع اتجاهًا اجتماعيًا متناميًا يحبذ قوانين الطلاق الأكثر تحررًا. وفى ذلك الوقت، اعتبرت الدولة الزواج، شأنًا خاصًا بالكنيسة، ولم تكن لتأتى أية حركة دون موافقة الكنيسة. كان فيشر يوضح أن مثل هذه الموافقة لن تأتى.

وحدث مثل هذا الاستحسان الشديد مرة أخرى سنة ١٩٦٠م، عندما قررت دار

پنجوين للنشر، وعلى الرغم من الادعاءات القضائية حديثة العهد التى نتج عنها حكم بالسجن على بائع كتب، أن تنشر طبعة لم تخضع للرقابة من رواية «عشيق الليدى شاترلى ـ Lady Chatterleys Lover». كانت الرواية سيئة السمعة التى كتبها د. هـ. لورنس تتضمن، فضلاً عن وصفها لممارسة الجنس، كلمة دارجة ذات حروف أربعة (هى كلمة Fuck التى وردت ما لا يقل عن ثلاثين مرة فى صفحات الرواية) وهى أكبر إساءة.

وقد أيدت المؤسسة، بما فيها كبير أساقفة انجلترا، الادّعاء بقوة، كما أن سير ريجينالد ماننجهام ـ بوللر، المحامى العام، منح تشجيعه الأخلاقى والمعنوى من خلف الكواليس. وفى فقرة تم إيرادها كثيراً ضده فيما بعد، قام المدعى العام ميرڤين جريفيث چونز بتوجيه كلامه إلى المحلفين «اسألوا أنفسكم هذا السؤال: هل توافقون على أن أبناءكم الشباب، وبناتكم الشابات ـ لأن البنات يمكن أن تقرأ مثل الأولاد تماماً ـ يقرأون هذا الكتاب؟ هل هو كتاب يمكنكم اقتناؤه فى المنزل؟ هل هو كتاب تريد لزوجتك أو خادمتك أن تقرأه؟

وقد سُمح للدفاع باستدعاء خبراء أدبيين ودينيين؛ لكى يبينوا أن فى الكتاب أوجه جدارة تفوق البذاءة الواضحة، وإن كانت سطحية، وبرّأه المحلفون بالإجماع. وشكا كبير الأساقفة فيشر من أن الادّعاء لم يكن صلبًا بما فيه الكفاية وكان عليه أن يقارع «أستاذًا بأستاذ وأسقفًا بأسقف» فى استدعاء الخبراء للشهادة. والسبب فى أن حذف الكلمة التى تبدأ بحرف «F» من مفردات اللغة الإنجليزية كان يحظى بهذه الأولوية القصوى بالنسبة لكنيسة انجلترا، يمكن تفسيره فقط إذا ما كانت الكنيسة المؤسسة تشعر بأنها مسئولة عن مجمل النغمة الأخلاقية فى البلاد، وليست فقط مسئولة عن المعتقدات الدينية لأعضائها. والحقيقة أن عقلية فيشر السهلة والطبيعية كانت تجرى وفق هذه الخطوط بالضبط؛ إذ كانت الكنيسة والدولة هما الجانبين الروحى والزمنى لنفس الكيان الوطنى الإنجليزى (وكلمة «روحى» فى هذا السياق كانت تعنى «أخلاقيًا» إلى حد كبير).

كانت محاكمة رواية «عشيق الليدى شاترلى» علامة فارقة، ليس لمجرد أنها

جرت فى سنة ١٩٦٠م الرمزية - بداية ثورة الستينيات فى الأسلوب والسلوك التى أزاحت الكثير من المحرمات، التى أضفت على سنوات ما بعد الحرب مثل هذه الشخصية الخانقة.

وكان سيبدو كما لو أن شخصية بريطانيا كأمة مسيحية قد بدأت تتعثر. وكانت الصدمة الثانية للنظام الأنجليكانى هى نشر كتاب «Honest To God» سنة ١٩٦٣م الذى كتبه أسقف وولويتسن، الدكتور چون روبنسون. فقد كان قد قدم الدليل للدفاع فى محاكمة رواية «عشيق الليدى شاترلى»، وبدا الآن وكأنه ينشر الشكوك حول حقيقة المسيحية. وثمة ملخص متقدم فى جريدة «The Observer» أعد المشهد بعنوان رئيسى: «أسقف يقول إن الرب هناك فى الأعالى أو هناك فى الخارج يجب أن يذهب».

كان فيشر فى ذاك الحين قد تقاعد من كانتربورى، ولكن خليفته ميخائيل رامزى، لم يكن أقل حرصًا على دخول الشجار بالاستنكار والإدانة. وقال إنه «حزن بشكل خاص من جراء المنهج الذى اختاره الأسقف لطرح أفكاره على العامة» وهو «ما سبب إثارة العامة وسبب ضررًا كثيرًا. وكثير منا ممن قرأوا المقالة ونداءاتها ربما لم تكن لديهم الفرصة أو العقول اللازمة لقراءة الكتاب الذى تشير إليه». وكان كتاب روبنسون مسحًا لبعض اللاهوت البروتستانتى المتحرر المكتوب باللغة الألمانية بأقلام باحثين من أمثال رودلف بولتمان، وبول تلليخ، وديتريخ بونهويفر (الذين أعدمهم النازى).

فقد انطلقوا، وكذلك فعل هو، لتحديث ما رأوا أنه مفاهيم خاطئة بدائية وطفولية عن المسيحية شائعة بين العامة. ومن الواضح أن رامزى كان يخشى من أنه بدلاً من تحويل هذه الأفكار إلى شىء أكثر عقلانية، وبالتالى أكثر قدرة على الوقوف بوجه روح الشك السائدة فى ذلك العصر، فإن الناس سوف يستنتجون ببساطة أن المسيحية «ليست ديانة حقة بالمرة». ومثل هذه التأملات كان من الأفضل أن تنحصر فى نطاق مجالس العموم الراقية؛ حيث تعرف أفضل العقول كيف تتعامل معها. وكانت تلك مقاربة لا تختلف كثيرًا

عن خط الادّعاء فى محاكمة رواية «عشيق الليدى شترلى» : «هل هذا كتاب تود أن تقرأه زوجتك أو خدمك؟» كان كبير الأساقفة رامزى محقًا فى جانب واحد؛ إذ كانت بعض الأفكار التى طُرحت فى كتاب روبنسون الذى لم يكن مكتوبًا بصورة جيدة، مجردة بشكل يربك العقل، وأظهرت كافة دلائل أنها قد ترجمت حرفيًا وبصورة خرقاء عن الكلمات الألمانية المركبة متعددة المقاطع.

ومن الناحية الفلسفية كانت البروتستانتية الليبرالية تبدو وكأنها تتلمس طريقها عائدة إلى نوع ما من الغيبيات، بعد أن كانت قد أدارت ظهرها لتلك المدرسة فى اللاهوت فى زمن الإصلاح الدينى. وفى داخل الآفاق الفكرية للمحررين الصغار فى جرائد التابلويد، ظهر روبنسون وكأنه يقول: إن الرب غير موجود وأن يسوع ليس ابنه. وإذا كان ذلك هو ما سُمع يقوله، فإن قادة كنيسة انجلترا شعروا أن من واجبهم أن يوقفوه. ولا شك فى أن ما جعل المشاجرة صاخبة هو حقيقة أن هذا بدا وكأنه هجوم على ديانة المؤسسة الحاكمة، من الملكة إلى أصغر موظف، ومن ثم كان من الناحية السياسية والاجتماعية مخربًا وهدّامًا بقدر ما كان كذلك من الناحية الدينية. وإذا كان ما يزال هناك اعتقاد قوى باق فى أن انجلترا هى «الشعب المختار»، فإن أى اقتراح إذن بأنه ليس هناك رب، أو على الأقل لا يوجد رب مثل ذلك الذى تتطلبه نظرية الشعب المختار، سيكون تهديدًا خطيرًا للهوية الوطنية، وكان رد فعل المؤسسة بالتالى يثبت هذه النقطة. ومن المثير للسخرية أن قصد روبنسون الحقيقى لم يكن إضعاف الإيمان الدينى وإنما تقويته؛ إذ إنه شعر أن المسيحية لم تكن تُقدّم بطريقة يمكن أن يستجيب لها الأذكياء من الناس. إذ كان يشارك ناقديه فى الرأى بأن المجتمع السليم يحتاج إلى المسيحية لكى تجعله يعمل.

وقد أرسى كتاب «Honest To God» بوضوح مدى ما كان عليه معظم أعضاء الكنيسة من جهل باللاهوت؛ إذ إن هذه المسائل، وليس أقلها رفض المعجزات وغيرها من العناصر الغيبية فى الدين، كانت مطروحة فى مجال الاهتمام العام منذ زمن جورج إليوت على الأقل، إذا لم تكن مطروحة منذ زمن الربانيين «Deists».

ومن ثم فإن ارتباك العامة منذ ذلك الحين كان ينبغى أن يكون علامة تحذير على نقص العمق فى الاعتقاد الدينى الإنجليزى العادى، والذى كان موجوداً حتى فى قلب أعضاء الكنيسة. ومن الواضح أن الغالبية العظمى من الكبار كانت لديهم أفكار عن المسيحية لم تتقدم منذ أيام المدرسة الابتدائية، وقد وضع هذا علامة استفهام ضخمة ضد استثمار الكنيسة فى التعليم الدينى، فقد كانوا قادرين على أن يأخذوا أفكار روبنسون، دون أن يوافقوا عليها بالضرورة، لصالحهم، بدلاً من أن يحولوها إلى فضيحة. لقد تم إرسال هذه الإشارة، لكن أحداً لم ينتبه إليها. والجهل الدينى بين مرتادى الكنيسة العاديين قد خلق إمكانية التعرض للضغوط الثقافية وأنماطًا فكرية، إذا لم تتم معالجتها، سيكون لها نتائج وخيمة فى العقود القادمة.

وتشترك هذه القصص فى شىء واحد؛ ذلك أنها أوضحت كيف أن القوى التى يراد لها أن تتحكم فى الكيفية التى يتصرف بها الناس ويفكرون، مهتمة بالدرجة الأولى بالزواج والعلاقات الجنسية، ويأتى اهتمامها بالعقيدة الدينية فى المرتبة الثانية. لقد كانت نظرية تساقط بطىء عن الدين والأخلاق، كانت بها أصداء قوية من الافتراض الذى ساد فى القرن السادس عشر بأنه عندما يحبذ الملك الطلاق، فعلى كل من عداه أن يحبذ الطلاق، وعندما يتغير دين الملك، فعلى كل واحد سواه أن يغيّر دينه أيضًا.

لقد شهدت الفترة منذ خمسينيات القرن العشرين صعوداً تدريجيًا للأفكار المعارضة، أى أن الناس العاديين كانت تزداد مقاومتهم لأن تكون معتقداتهم ومستوياتهم الأخلاقية محددة لهم من أولئك الذين فوقهم فى السلم الاجتماعى والسياسى. كان هذا - جزئيًا - رفضًا للطبقة الاجتماعية والمفهوم الفيكتورى القديم عن «التنشئة»، وعدم ترحيب بالاعتراف بعد ذلك بأن أولئك الأعلى فى المنظومة الاجتماعية أفضل على نحو ما أخلاقيًا من أولئك الذين فى الطبقات الأدنى، كما كان - فى الحقيقة - رفضًا حتى للتفكير فى لغة الطبقات «الأدنى» و«الأعلى». بيد أنه كان أيضًا - جزئيًا - رفضًا لمكانة انجلترا كشعب مختار، وكل ما كان مسلمًا به نتيجة لتلك الفكرة على مدى ما يزيد على ثلاثة قرون. وفى الظاهر، كانت الفكرة قد

اختفت منذ زمن طويل تحت السطح. أما من الناحية الضمنية فإنها استمرت فى المساعدة على تشكيل مفهوم الشعب الإنجليزى عن مكانهم الخاص الصحيح فى العالم حتى اليوم الحالى. ولكنها كانت تتضاءل على الدوام بمرور السنين، وهذا الاضمحلال فى فكرة الاختيار يطرح مشكلات ضخمة حول هوية الأمة الإنجليزية ومصيرها. وإذا لم يكن الأمر كذلك، فما هو؟ إذ إن كونها «أفضل أصدقاء أمريكا» لا يكفى.

ربما كانت تلك غلطة هارولد ماكميلان. فبعد أزمة السويس، رأى بوضوح إلى أين انتقل رداء الاختيار. وعلى الرغم من أن العبارة كانت موجودة من قبل فإن إسهامه فى مستقبل البريطانيين على المدى البعيد تمثل فى رفع مصطلح «العلاقة الخاصة» تقريبًا إلى مستوى التعريف الوطنى البديل. وإذا لم يكن بمقدور بريطانيا أن تكون أقوى قوة فى العالم، فإنها يمكن على الأقل أن تكون أقرب حلفائها. وما تزال أمريكا تبدو فى مظهر الشعب المختار، وتؤمن فى قرارة نفسها أنها كذلك، حتى ولو أن المفهوم عادة ما يتوارى فى ظل شعارات عاطفية مثل «بلاد الرب» أو التعبيرات الفكرية الرقيقة مثل «الاستثنائية الأمريكية». كان هناك (وما يزال) فريق من السياسيين الأمريكيين الذين يمثلون التيار العام لا يرون أبدًا أى سبب للشك فى أعمال أمتهم التى يرعاها الرب، أو للتساؤل حول الرؤية القائلة بأن الأمة لها «قدرها الواضح» فى جعل بقية العالم مثل أمريكا بقدر الإمكان، كما أنهم لا يتساءلون عن أن العناية الإلهية هى التى تحركهم إلى الأمام.

وربط هذه العقيدة فى أمريكا بالمسيحية كان أوضح بكثير فى الجانب الجمهورى، على الرغم من أن بعض الديموقراطيين مثل الرئيس چيمى كارتر يشاطرونهم ذلك. ومجموعات المهاجرين الذين وصلوا منذ الحرب الأهلية، والذين كانت لهم خلفيات غير الأنجلوسكسون، وديانات أخرى غير البروتستانتية، اكتشفوا أن الارتباط بهذه الأيديولوچية يختلط بالولاء للعلم. وكانوا شغوفين بأن يجتازوا الاختيار. وهكذا فإن التدفق اليهودى الكبير أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، اعترف بسرعة بموضوع الشعب المختار بأنه يشبه موضوعهم، وشعروا أنهم فى وطنهم تمامًا لهذا السبب.

وكما رأينا فى ثنايا هذا الكتاب، فإن السياسيين الأمريكيين المعاصرين، ما يزالون لا يخجلون من الكلام بهذه المصطلحات. وقد اقتبسنا عن الرئيس ريجان وچورج بوش الابن هذه النزعة، كما اقتبسنا أيضًا عن العمدة چوليانى فى نيويورك. وكنا نستطيع أيضًا أن نقتبس عن وزير العدل فى إدارة بوش، چون أشكروفت، وزعيم الأغلبية فى الكونجرس هويب توم ديلاى، أو غيرهما كثير. فعلى اليسار، فإن الإيمان بالمصير الأخلاقى الفريد لأمريكا ليس أقل رسوخًا ،على الرغم من أن التعبير عنه لا يتم كثيراً فى مصطلحات دينية. وهو يتجلى، مثلا، فى عدم ترحيب اليسار، وهو أمر يميز اليسار واليمين الأمريكى على السواء، بالاهتمام بالانتقادات الخارجية؛ لأنهم يعتقدون أن بقية العالم تمثل الماضى على حين تمثل أمريكا المستقبل ؛ ومن ثم أن العالم الجديد ليس لديه شىء يتعلمه من العالم القديم.

* * *